د. جمال الاتاسي

في الدفاع عن القومية ووحدة الأمة

مقدمة

الأمة العربية وجود والقومية العربية حركة فكر وحركة سياسية تنطلق من التأكيد على هذا الوجود للأمة العربية وتعطيها حركيتها، أي صيغتها أو صيغها الإجرائية في حياة المجتمعات والشعوب، وفي تشكيل تعبيراتها السياسية وقواها ، وهي حافز للعمل والتعاون من أجل تحرر الأمة وإخراجها من واقع التجزئة والتابعية والتأخر، لتضعها على طريق وحدتها، وصولاً بها إلى أن تشكل كياناً سياسياً موحداً ولتنهض وتأخذ دورها بين الأمم .

وأنا في هذه المقالة لا أفلسف فكرة القومية العربية وقد كان ومازال لها فلاسفتها ومفكروها، لا أبحث عن صياغة ايديولوجية جديدة ، بل ولا أكتب تاريخها، وانما أتابع حركتها صعوداً وهبوطاً، تقدماً وتراجعاً ، وأحاول أن أستكشف مصاعبها وعثرات طريقها، وأستعرض أنماطاً ونماذج قامت وتقوم تعبيراً عنها، تطلعاً إلى استمراريتها كحركة وحركات من أجل وحدة الأمة ، لكي تظل حافز حركة وتقدم لشعوب الأمة، وحركة في مسار التاريخ، وأدافع عن مستقبلها في وجه المتنكرين لها والذين ينكرونها مؤكداً في الوقت ذاته قابليتها للتجدد والحياة ، بل واصراراً على ضرورتها والحاجة إليها في وجه الذين يدحضون وجودها وجدواها ، فمازلت لا أرى طريقاً غيرها ليكون هناك معنى ومستقبلاً لوجودنا ووجود أمتنا.

والحديث عن خياراتنا المستقبلية على هذا الطريق، مازال بحاجة لمقدمات، واستخلاص تجارب وبحث عن مرتكزات، ونحن مازلنا في المقدمة، ولا أحسب أني سأصل في هذا الحديث إلى خاتمة أو نهاية. فما ولى عصر القوميات ولا ولت قوميتنا العربية أدبارها، كما يرى أو يريد لها آخرون ، بل هي حياة وحيوية المجتمعات وهي تتجدد وتترابط ببعضها وتتقدم، وحيويتها في قدرتها على استيعاب المتغيرات في العالم وأن تبقى في سياق مع الزمن .

وأستهل مقدمتي هذه بكلمات كتبها المفكر الماركسي العروبي الراحل الياس مرقص، والذي نفتقد اليوم لمثل فكره النقدي المتعمق، حيث يقول في بحث له عن الستالينية والمسألة القومية، نشر عام ١٩٦٢ في " الفكر السياسي " : " حقاً ان وجود الأمة العربية ، ووجود الأمم بشكل عام حقيقة راسخة فوق التعاريف والنظريات، ولكن هذا لا يقلل في شيء من وجوب تعرية النظريات المعادية للقومية العربية وفضحها واستئصالها من الجذور... " ولكن الستالينية هي التي تمت تعريتها في ديارها، وبقيت حقيقة الأمة، إذ إن الأمم والقوميات هي الأبقى .

وفي مجال الحوار حول المستقبل التاريخي للأمم والعلاقات بين ا لأمم (أو التجاوز نحو الأممية) كان الياس مرقص، يعود بي لمعطيات الماضي وما تقدم من دلالة. ولقد ردد على مسمعي أكثر من مرة مقولات لكارل ماركس إبان قيام الوحدة الألمانية في القرن الماضي، كان يفند فيها المواقف التي اتخذها " التقدميون " الألمان من اشتراكيين وشيوعيين ، من تلك الوحدة ومن السياسة التي انتهجها بسمارك لتحقيق تلك الوحدة، ويرد عليهم من حيث أنه، أي بسمارك، قد حقق خطوات كان لا بد منها، تعتبر إنجازاً بفتح الطريق للاشتراكية لإقامة علاقات أكثر تقدماً بين الأمم (أو أممية) .

ومن هذه المنطلقات "الماركسية " قال مرقص في رده على التشويه الستاليني لمسألة الأمة والقوميات في خاتمة دراسته النقدية للستالينية والمسألة القومية : " ليست الأمة مجرد إطار لطبقات متناحرة تجمعها رابطة اللغة والأرض والسوق الاقتصادية، إنما هي دافع حياتي أساسي للإنسان يعيشه كما يعيش واقعه الاجتماعية. "

والواقع الحياتي هذا عشناه منذ تفتح وعينا على وجودنا الاجتماعي وعلى وجودنا في العالم ، ولكنه لم يصبح وعياً قومياً وعروبياً فاعلاً ، إلا عندما أخذ حركيته وأصبح حافزاً للحركة والنضال ، وعندما أخذت فكرة الأمة العربية الواحدة ، مجراها وصيغتها الإجرائية، وأصبحت سياسة وحركات سياسية، تعطي لحركة الاستقلال الوطني أفقها القومي ، وتدفع لأن يقوم على الاستقلال دولة للأمة، وأن يوضع الاستقلال على طريق توحيد أجزاء الأمة وعلى طريق مشروع نهوض حضاري للأمة.

وأنا ما استشهدت، وفي المقدمة، بهذا المفكر الماركسي العروبي والعقلاني والمنفتح للتقدم ، دفاعاً عن وحدة أمتنا العربية ووجودنا القومي، إلا لأدلل على الإطار الأكثر إحاطة وأكثر تقدماً وتطلعاً للمستقبل، في حركة القومية العربية من حيث هي حركة تحرير وتوحيد وحركة نهوض بالأمة، فضلاً عن أن هذا النموذج للفكر العربي الوحدوي الذي أخذ به الياس مرقص في نقد " الماركسية الرسمية " أو التقليدية نظماً وأحزاباً ، كان ديدنه أيضاً في نقد الفكر القومي التقليدي والأنظمة والحركات التي قامت باسمه لتتحول ضده ، أي ضد وحدة الأمة، وأنا هنا إذ أضع تفكير الياس مرقص الماركسي في إطار الفكر القومي المجدد وإطار الحركة القومية الوحدوية ، أذكر أنه في الواقع كان يفضل أن ينفي هذا الوصف له بالقومي في حياته، كما كان يرفض أية مذهبة أو أدلجة، كان يدافع عن القومية العربية وفكرة الأمة ووحدتها، وكان يفضل أن يوصف من حيث نهجه هذا بأنه " ناصري " إذ كان يرى في سياسة عبد الناصر العربية النهج الأكثر تقدماً وأكثر عقلانية وتطلعاً للمستقبل في حركة الوحدة أو التوحيد العربي.

هذا نموذج ومثال لما يمكن أن يحيط به الفكر القومي وأن تحيط به حركة القومية المتجددة من تيارات وقوى تلتقي في إطارها وتدفع بها على طريق الوحدة . وسأتابع، بعد هذه المقدمة، الحديث عن نماذج أخرى تعطي رصيداً وتؤدي دوراً ، ونحن في هذه المرحلة، وبعد كل ما حل بأمتنا من نكسات، نريد أن نقف بها كلها في مواقع الدفاع عن وجودنا القومي وفي مواجهة كل الذين يريدون نفي هذا الوجود.

فالأفكار والجماعات الفكرية وكذلك الحركات والتحركات السياسية المعادية للقومية العربية والنافية لها، من داخل الأمة وخارجها، مستنفرة على أشدها منذ سنوات، ولقد بلغت ذروتها في حرب الخليج الثانية. وإذا كان عداء الغرب وقوى الهيمنة الإمبريالية في العالم ، للقومية العربية ولوحدة أمتنا، ووقوفها ضدها ، قد أخذ دوراً فاعلاً في حركة الأحداث، فإن الأدهى والأكثر مرارة هو ذلك العداء والنفى الذي يتحرك من داخل الأمة، ومن نخب ثقافية وسياسية محسوبة عليه، وهذ أبرزته المواقف التي اتخذت عند " أزمة الخليج " واستمرت بعدها . وسنأتي على ذكر ما كان هناك من افتراق كامل في تلك الأزمة، في الموقف اللاقومي للحكام والنظم القطرية الحاكمة، وبين وقفة الشعوب- وإن غلبت على أمرها ، في حقيقتها القومية . لقد عبر عن ذلك أصدق تعبير الأستاذ انطون المقدسي في كتابه عن حرب الخليج واختراق الجسم العربي وهذا نموذج أيضاً في الدفاع ... يقول المقدسي بهذا المعرض في كتابه : " صار لواحد من أركان مجلس التعاون أن يعلن : لقد أثبتت حرب الخليج أن الأمة العربية أسطورة. بلى يا سيدي هذا ثابت قبل حرب الخليج وبعدها، ولكن لا حيلة لنا في هذا الأمر، فأنا من شعب يؤمن بالأساطير مثل ساطع الحصري وزكي الأرسوزي وقسطنطين زريق وغيرهم . والأسطورة هنا (كما في لسان أفلاطون) تقول وجودي ، وجودك ، وجودنا كلنا، لا وجود لنا سواه، شعباً واحداً ، أمة واحدة ... "

وعن هذا الوجود ندافع وعلى هذا الوجود نبني ونتقدم ، وبحقيقتنا هذه نواجه من ينكرون علينا أو يتنكرون لهذا الوجود.

ففي حديث جرى عبر الهاتف لبرنامج إذاعي لمحطة لندن، كان تحت عنوان "نظرة بانورامية للقومية العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها"، لأشهر خلت بعد حرب الخليج الثانية، كان السؤال الأخير الذي طرح عليّ من معدة البرنامج : " هل توافق على ما قاله متحدث عربي مؤخراً من أن حرب الخليج كانت المثوى الأخير للقومية العربية؟ أرجو التعليق مع نظرة للمستقبل ". وألخص جوابي الذي جاء رداً بجملة واحدة (وقد نشر الحدث والتعقيب عليه في مجلة " المستقبل العربي " عام ١٩٩٢) : " هذا ما

أريد أن يكون، في تلك الحملة التي دبرتها الإدارة الأميركية، وهي إذا ما كشفت تفكك الرابطة القومية والالتزام القومي لدى الأنظمة العربية والحكام ، فتلك أزمة طرحت أيضاً ، في المقابل ، ضرورة الرد القومي والوحدة القومية كمخرج لا بديل عنه في مواجهة التحديات ... " ولكن هذا الحديث الذي أدير مع أطراف عربية عدة قد جاء فيه، بالمقابل ، " الرأي الآخر "، أي رأي الغرب ورأي بعض الأكاديميين الغربيين المعبرين عن الموقف الأميركي والغربي المضاد والنافي لطموحات الثورة العربية الوحدوية كما جسدتها حقبة النهوض الناصري ، الذي أخذ يطلق أحكاماً قاطعة بأن حركة القومية العربية قد توقفت وانتهت منذ هزيمة حزيران ، وأصبح على العرب أن يتخلوا عن أحلامهم القومية في وحدة عربية، ليتعاملوا مع العالم من حيث واقعهم كدويلات قطرية متفرقة على شاكلة غيرها من دويلات العالم الثالث الناشئة، وكان أبرز حاملي هذه الدعوة البروفسور الأميركي الجنسية فؤاد عجمي الذي أصدر عام ١٩٦٧ (أي بعد هزيمة حزيران) كتاباً أسماه : " الورقة أو الوثيقة العربية "، عمم على جميع جامعات الغرب، ليصبح مرجعية لكل من يريد البحث في شؤون الشرق الأوسط. وتأكيداً على ما جاء في تلك " الورقة "، قال المعقب الغربي : " إن الأوضاع العربية كما يراها العجمي لا ينفرد بها العرب وحدهم، ومن الخطأ أن يظن العرب أن مشاكلهم فريدة من نوعها... فالعالم العربي ليس إلا مجموعة من عشرين دولة في العالم الثالث، تواجه ذات المشاكل التي تواجهها حالياً دول أخرى في آسيا وأفريقيا وفي أقطار اوروبية شرقية وكأنه من وجهة النظر الأميركية هذه ليس لهذه الدول إلا أن تقف عند الحدود المرسومة لها ". وأضاف الأكاديمي البريطاني قائلاً : " إن العرب يردون مشاكلهم وإحباطاتهم إلى دور الاستعمار الفرنسي والاستعمار البريطاني والإمبريالية الأميركية ، ولكن الواقع أن من أهم أسباب فشل الوحدة بينهم ما يعود إلى طبيعة الأنظمة العربية القائمة، فهم ببساطة لا يريدون الوحدة ". وإذا صح هذا القول بعد كل ما آلت إليه أحوال أمتنا ومجتمعاتنا وشعوبنا، تحت وطأة أنظمتها القطرية السائدة، فإن هذا لا يمكن أن ينسينا الدور الخطير الذي قام به الاستعمار الفرنسي والاستعمار البريطاني، عندما جاءا من البداية، ومنذ أن ظهرت المبادرات الأولى لنهوضنا القومي وتطلعات طلائع الأمة لوحدة عربية وتجميع شتاتنا القومي الذي كان، منذ أن أخذت تتفكك وتنحسر الامبراطورية العثمانية، جاءا ليفرضا هذه الأطر والحدود للتجزئة والتبعثر القومي، وليضعا كل ما بمقدورهما من عقبات على طريق اندماجنا القومي ووحدتنا. ولمكافحة قوميتنا العربية ومعارضة نهوضنا الوحدوي، ساعدا على قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، كان ذلك نظام شرقي أوسطي سطر بعد الحرب العالمية الأولى ، حتى إذا تقدمت شعوب أمتنا على طريق الاستقلال، وكان لها نهوضها بل مقدمات ثورتها القومية الوحدوية في الخمسينات، وأخذت تلك الاختراقات " للنظام الشرق أوسطي " السالف الذكر تتفاقم، جددت الامبريالية الأميركية وحليفها الاستراتيجي الإسرائيلي في المنطقة حملاتهما ضد أي نهوض قومي وحدوي جديد للأمة ، بدءاً من تكريس أطر التجزئة العربية من جديد، وإخضاع الأنظمة القائمة من خلال قطريتها للتابعية، ولتضعها على طريق نظام شرق أوسطي جديد، لتذويب وجود الأمة في شرق أوسطية اقتصادية ، لا تلغي التجزئة والحدود، وانما تفتحها بحيث لا يعود هناك أوطان ولا وطنية ولا قوميات بل ولا شعوب...

ونحن بهذا الموقف لا نريد تبرير قصوراتنا وتقصيرنا بإلقاء كل التبعات على الآخر، على العدو الخارجي، فالعلة أصلاً كانت في تأخرنا وتأخر مجتمعاتنا وفي تبعثرنا القومي، والعلة الكأداء اليوم، هي في أنظمتنا القطرية التي أصبحت نافية للتقدم ونافية لوحدة الأمة منذ أن أصبحت نافية لحرية شعوبها وللاندماج القومي لمجتمعاتها.

وتحت هذا النفي المضاعف من الخارج ومن داخل الأنظمة، ما من مخرج، إلا أن نجدد خطابنا القومي ونؤكده.

حديث وأحاديث عن الوحدة ودور الأمة

قبل عامين، ألقيت محاضرة في المنتدى الثقافي العربي في عمان، كان عنوانها "حديث عن الوحدة في زمن السقوط والردة" . أما زمن السقوط الذي عنيت، فهو تلك الحقبة من الزمن الممتدة منذ منتصف السبعينات حتى يومنا هذا، والتي جاءت في أعقاب " حرب تشرين " التي كادت أن تكون مجيدة، وكادت أن تكون تعبيراً عن وحدة الأمة وتضامن قواها في مواجهة الشدائد، لولا أنها أوقفت دون تحقيق أهدافها، والتوت بها القيادة الساداتية، لتضعها على طريق الاستسلام أمام النفوذ الأميركي وما ترسم السياسة الأميركية للمنطقة العربية وما حولها، ولتخرج بمصر عن دورها الرائد كدولة قومية للأمة، لكل الأمة العربية، وكمرتكز لتجمع قوى الأمة ونهوضها على طريق تحررها ووحدتها ، وتضعها في مسار كمب دافيد وأول انفراد وتسوية منفردة ومصالحة لدولة عربية مع العدو الإسرائيلي . فا لارتداد كان ارتداداً عن النهج الثوري لحركة القومية العربية كما جسدته ونهضت به ثورة مصر الناصرية، وكان ارتداداً بمصر إلى مواقع القطرية والتابعية. هكذا فقدت الثورة العربية كثورة قومية تحررية وحدوية، المرتكز الأول لتجمع قواها، المرتكز الذي كان يعطي القدوة ... وبعد سقوط الثورة القومية في مصر، توالت حلقات السقوط في بقية المواقع العربية، في وقت صعدت فيه نظم النفط وثروات أهل النفط إلى موقع الصدارة والزعامة، لتعطي أمام العالم تلك الصورة السيئة للتأخر العربي، وكأن النفط وثروات النفط أصبحت التعبير الوحيد عن وجود أمتنا وقوتها بينما أخذت الأنظمة العربية ترتد أكثر فأكثر عن مواقف القومية العربية وثورة الشعوب، إلى مواقعها القطرية، إلى التابعية وإلى سحق طموحات شعوبها، وتفتيت مجتمعاتها والارتداد بها عن مواقع الاندماج القومي التي كانت قد تقدمت إليها في الحقبة السابقة.

هذا ما عنيته بزمن السقوط والردة، والذي مازالت حلقاته تتوالى والتي وصلت بأمتنا إلى تلك السقطة الكبرى في حرب الخليج، وإلى تصدع، لم يمس فقط جبهة صمودنا في وجه أعداء أمتنا، وصولاً إلى هذه المسيرة الاستسلامية نحو النظام الشرق أوسطي الذي يلغي وجودنا ومستقبلنا كقومية وأمة، بل كل ما آل إليه العديد من المواقع العربية من تصدعات داخلية وحروب أهلية وطائفية...

أما حديث الوحدة، والذي كان منطلقه المبدئي (ومازال) أن لا رد ينهض بأمتنا وشعوبنا العربية وقوانا إلى مستوى المخاطر والتحديات، إلا الرد القومي الوحدوي، وإلا موقفاً موحداً وكلمة واحدة تقولها الأمة، وكان الحديث دعوة لوصل ما انقطع من مسار نهوض الأمة، واستنهاض لتحرك وحدوي، قد تعدد صيغه ثم تتكامل، من مواقع عربية متعددة . وكان حديثي تبشيراً، أو با لأحرى دعوة لمشروع وحدة كونفيدرالية بين أقطار المشرق العربي، ترفع الحواجز والحدود بين شعوبها وتشدها إلى بعضها في وجه أعداء الأمة ومشاريعهم في الهيمنة على المنطقة ، وتضع الأنظمة في مواقف موحدة وسياسات واحدة ، في مواجهة الضغوط والتسويات الزاحفة . كان ذلك مشروعاً تلاقت عليه مجموعة من أعضاء " المؤتمر القومي العربي " وطرحته على الرأي العام وعلى أصحاب القرار في أقطار المشرق، وكنا نتلمس سبيلاً لتحريض تحرك قومي ضاغط على الأنظمة المنخرطة في مسارات التسوية، لنشدها إلى مرجعيتها القومية، ولكن حركة السقوط والتسويات المنفردة، والموثقة أميركياً، كانت هي الأسبق . وبدلاً من أن يأتي نهوض قومي من موقع من المواقع العربية ليقطع طريقها ويوقفها عند حد، جاءت بدورها لتعترض السبيل، وتضع أمام الأمة والتحرك باسم قضية الأمة ومصلحة الأمة الواحدة ، عثرات جديدة وبدونا وكأن صوتنا أصبح صوتاً نشازاً، وكأننا في دعوتنا وحركتنا من زمن غير هذا الزمن، أو كأننا نخاطب شعوب أمة غابت، وما غيبها أعداؤها والمشاريع المعادية بمقدار ما غيبها وغيب عنفوانها وآمالها حكامها وتسلطية فئاتها الحاكمة وتفريغ الشعارات التي رفعتها أهدافاً لنضالها ، من كل مضامينها ومصداقيتها .

كان حديثاً عن الوحدة العربية وتأكيداً على ضرورتها ودفاعاً عن مشروع وحدة ، ستكون لنا إليه عودة. واليوم من جديد، وبعد كل ما وقع من تراجع لصالح المشاريع المعادية وبعد كل ما تغير، فإن

حديث الوحدة العربية يظل حديثنا. فمازال ردنا على ما يتغير ويجري : استنهاض تحركات شعبية وروابط ومشاريع وحدوية ، وفكرتنا القومية ليست فكرة لحقبة تاريخية مضت، أو شعارات ومبادئ لحركات وقوى سياسية تخلت أو فشلت واضمحلت ، بل تظل الرد التاريخي والحضاري، والرد الإنساني كمشروع نهوض لا بديل عنه في مواجهة ما يدبر ضد وجودنا وضد أمتنا، ويظل حافز حركة وتقدم وحافز ثورة شعوب أمة . إنها ليست من الماضي الذي انقضى ، بل هي المستقبل وهي في تحركنا نحو هذا المستقبل .

فأنا لا أرى من مستقبل سياسي حضاري لأمتنا، ولا أرى مستقبل الإنسانية والعلاقات بين الشعوب والدول، إلا من خلال نهوض قومي وحدوي جديد لأمتنا ا لعربية، أي من خلال تجديد ذلك المسار الذي انقطع قبل أن يبلغ أهدافه ، لثورتنا القومية العربية كثورة ديمقرا طية وحدوية ، كثورة تحرير وتقدم، كثورة استقلال وطني وقومي ، ثورة تحديث لمجتمعاتنا وإطلاق لمبادرات شعوبنا ، وثورة تنمية شاملة ومتكاملة ومستقلة، على الصعيد القومي، عن التابعية والتعامل غير المتكافئ، ولا أتطلع لمستقبل للعالم ولنا في هذا العالم، إلا من خلال حضورنا كأمة عربية موحدة وناهضة على الساحة الدولية، وككتلة سياسية واقتصادية قائمة بذاتها ومتعاملة مع غيرها ومتكافئة، وليكون لهذه الأمة دورها في توازن العالم والنظام العالمي وليكون العالم أكثر إنسانية وعدلاً .

وإذ يكثر الحديث اليوم عن التقدم الهائل للعلوم والمعرفة في العالم وعن الثورة الصناعية الثالثة، وعن هذا العالم الذي تتقارب المسافات فيه والاتصالات ليصبح أشبه ما يكون بقرية صغيرة في هذا الكون بفضل ثورة التقنية والمعلوماتية والاتصالات والمواصلات ، فما من بديل لنا كعرب عن أن تقوم لنا عمارتنا الخاصة فيه، كعمارة عربية الثقافة والهوية، بل وكعمارة عربية إسلامية مجددة، وليكون هناك تواصل بين أرجاء هذه المعمورة والعمران ، وأن يعود ويتأسس على الحداثة والمعرفة والعقلانية، عمراننا الاجتماعي والمدني والسياسي .

وإذا كان امتلاك التقنية أو التكنولوجيا المتقدمة، أصبح مقوماً أساسياً من مقومات تحديث الدول والمجتمعات ووسائل التنمية والانتاج، وسبيلاً لبناء القوة وإثراء مختلف نواحي الحياة البشرية، أي إذا أصبحت ضرورة من ضرورات بناء التقدم ، فإنها تبقى شيئاً خارجاً عنا ولا يؤسس القوة والتقدم عندنا، ما لم نتحكم بأيدينا وعقولنا ونستنبته في أرضنا. وهذا الاستنبات والتحديث، لا يقوم ولا يؤتي ثماره ما لم نتقدم إليه وبه من خلال بناء الحداثة والتقدم في مجتمعاتنا، في مناخ من الحرية والديمقراطية ومن خلال تعميم روح المواطنة وروح الانتماء للأمة ، وتعزيز أواصر الوحدة الوطنية في المجتمع من خلال التطلع القومي للأمة ووحدة الأمة وسلامة الأمة والمصير المشترك . فإذا كان التقدم التقني والعلمي معياراً ، فإن التقدم باستقلالية الأمة وحرية شعوبها وحركة شعوبها، هو معيار أساسي أيضاً لتقدمنا ونهوضنا، إن لم نقدم على الأول، فالأولى أن يكون قريناً له، ولا يلتقي القرينان ويأتي التقدم الحقيقي والنهوض، ما لم يبدأ النهوض من القاعدة. وما لم تمتلك مجتمعاتنا المدنية وشعوبنا والطلائع الثقافية لهذه الشعوب حريتها وارادتها القومية الحرة رافضة كل تقدم ولقطع الطريق أمام نهوضنا القومي وتقدمنا، فإن القوى المعادية لأمتنا وكل القوى الطامعة في السيطرة على ثرواتنا ومواقفنا الاستراتيجية وأسواقنا، يعملون في آن واحد على قطع أي سبيل للتقدم على طريق وحدتنا العربية، وكذلك على قطع أسباب امتلاكنا لقاعدة صناعية وتكنولوجية متقدمة، أي يحولون بيننا وبين امتلاك ما كان يسميه عبد الناصر " قوة الوحدة ووحدة القوة " والنهوض العلمي والتقني إلى مستوى العصر. لهذا قامت وتعمل إسرائيل، ولهذا تعمل من فوقها وبكل إصرار الولايات المتحدة الأميركية وكل ما يصب في اتجاههما هذا من قوى خارجية وداخلية، بينما تتكفل أنظمة الإقطاع السياسي والفئوي لدولنا القطرية وأنظمة الاستبداد السلطاني الشرقي الصاعدة ، على تكبيلنا من داخلنا وعلى قسر حركة شعوبنا وإخضاع وتفكيك مجتمعاتنا وقوانا الاجتماعية العاملة، قاطعة الطريق أمام اندماجها الوطني والقومي، وأمام تحديث بناها الاجتماعية وقواها

الاجتماعية المنتجة، لترتد بقطاعات واسعة منها إلى عصبياتها وتشكلاتها المحلية والعشائرية والطائفية، أي ما قبل القومية.

أولم يكن من الأهداف المعلنة للقيادة الأميركية حين شنت حرب " عاصفة الصحراء " ضد العراق، تدمير ما امتلك العراق من قدرات قتالية وأسلحة متطورة بل وأن تدمر كل ما يمتلك من قاعدة صناعية وتكنولوجية واعدة ؟ أما قالوا بإعادة العراق والشعب العربي في العراق إلى العصر الحجري؟... وبهذا المنحى يظل الضغط والرقابة والحصار على العراق، بل وليس على العراق وحده، إذ إن هناك حملة منظمة وحصار ضد كل الأقطار العربية بهذا المنحى، وباسم تخليصها من أسلحة الدمار الشامل وإمكانية صنعه، وباعتراض كل السبل التي تمكننا من الوصول إلى قاعدة صناعية وتقنية متطورة، إنما تسعى ليس فقط لأن تبقينا في موقع المتخلف والعاجز عن الدفاع عن النفس أو الصمود أمام التهديد الذري الإسرائيلي أو تهديد " القوة الأميركية الخارقة "، بل ولتبقينا في موا قع العجز عن امتلاك وسائل استقلالنا الاقتصادي وتنميتنا الاقتصادية المستقلة ، ولتبقينا على التابعية ولتحولنا إلى مجتمعات استهلاكية وأسواق مفتوحة لبضائعها، ولتبقي، ضمن هذه المعطيات كلها، على تبعثرنا القومي الذي كان، وعلى التأخر والتجزئة والتخلف داخل مجتمعاتنا وعلاقاتنا الاجتماعية، فلا يكسوها إلا من فوق غلالة غير رقيقة من تحديث السلطات وأدوات سيطرتها وقمعها لمجتمعاتها ، وكذلك من تحديث وسائل جني الثروة وامكانيات الطبقة الجديدة السائدة والمسيطرة على الحكم في نهب نتاج جهود مجتمعاتها وشعوبها.

***

هذا واقع صرنا إليه وكان من الممكن أن لا يكون . فلا هو حتمية من حتميات التاريخ، ولا التاريخ نسيج حتميات تتعاقب بالضرورة . فلقد كان لنا نهوض قومي وانقطع، وتضافرت على ذلك عوامل وظروف لا بد أن نستعيدها ونعيها، كما أن نهوضنا القومي من جديد ووحدتنا القومية التي نرى فيها اليوم الضرورة القصوى التي لا بديل عنها، هما أيضاً خاضعان لتضافر عوامل وشروط وقوى وإرادات رجال وشعوب.

أمتنا العربية أمة تاريخية قديمة وباقية، ولها من مقومات الوجود والحياة ما لا تتمتع به كثير غيرها من الأمم التاريخية، أو من الأمم التي أقامت كياناتها ووحداتها القومية ودولها القومية كدولة للأمة، ومازالت الأمة الأرسخ على الساحة الدولية ، أيأ ما أخذت بها التشكلات والتكتلات والامتدادات الكبرى والصغرى . أمتنا كفكرة، كرابطة وهوية إنسانية وثقافية، كتاريخ وذاكرة وذكرى في الثقافة الشعبية العربية وذاكرة الشعوب، ولكن هذا إذا حفظ بقاءها حتى اليوم، فهو لا يحمل في هذه الشروط ضمانة للمستقبل .

فوحدة الأمة ونهوضها ودورها وبقاؤها، هو في استكمال شروط وحدتها السياسية، وإذا كان للوحدة السياسية بالضرورة مرتكزاتها في الوحدة الثقافية والاقتصاد، فإنها الحركة والإرادة الجماعية والإرادة المقررة التي تصنع تلاحم بنى الأمة وتلاحم مجتمعاتها وقواها.

من اللافت للنظر في السنوات الأخيرة، وبخاصة بعد النكسة القومية الكبرى في حرب الخليج، والانكفاءات القطرية وتقدم مسيرة " الشرق أوسطية " والانهيارات الدولية الكبرى التي جرت، أن عدداً من مثقفينا القوميين ممن عرفوا بأفكارهم ومطالبهم الوحدوية العربية، يتراجعون أمام كل المعوقات السياسية والصعوبات والقوى والعوامل المضادة التي تعترض طريق وحدتنا السياسية، أو التقدم بخطوات سياسية نحو الوحدة، ليقولوا باعتماد الوحدة الثقافية والتبادل الثقافي والنهضة تعبيراً عن الوحدة، بعد الاعتراف بأن الكيانات القطرية والدول القطرية، برغم كل عيوبها قد تكرست كواقع لا يمكن تغييره أو اختراقه . ومع التأكيد على الدور الكبير للفكر ولأهل الثقافة والفكر، وبخاصة في هذه

المرحلة من الضياع ، في التوعية والاستنهاض وتوحيد كلمة الأمة، ومع التأكيد أيضاً على الدور الذي لعبته ومازالت تؤديه الروابط الثقافية بكل نواحيها، في التبادل الثقافي والفني، من تعزيز عرى وحدة الأمة، فإنني في العمل القومي وفي الدفع على طريق وحدة الأمة ، لا أستطيع أن أقيم فاصلاً بين الثقافة والسياسة وبين رجل الثقافة ورجل السياسة من حيث تطلعنا إلى رجل الثقافة الذي يحمل رسالة، والذي يؤدي بفكره وثقافته دوراً سياسياً ، أي أن تصبح الثقافة سياسة وحركة وعي وحركة فعل وتأثير في المجتمع . فلكل أمة رموزها الثقافية والأخلاقية التي تؤدي هذا الدور ولا بد من أن يكون لأمتنا رموزها أيضاً، فليس لإحباطات الواقع المتعثر ولا لحواجز الأنظمة القطرية أو هيبة السلطان، أن تنأى بنخبة من مثقفينا عن السياسة والفعل السياسي في الوقت الذي تطالبهم فيه مجتمعاتهم وشعوبهم بأن يكونوا دليلها إلى التغيير، ودليلها إلى طريق إنقاذ وحدة الأمة، ولربما دليلها إلى الثورة على هذا الواقع وما يعترض السبيل...

فالوحدة الثقافية، أو انتشار الثقافة الموحدة والتبادل الثقافي في أرجاء المجتمعات العربية قاعدة أساسية من قواعد إرساء وحدة الأمة وكذلك يمكن أن يقال أكثر عن الاقتصاد والتبادل الاقتصادي والتكامل . ولكنهما ليسا شرط كفاية لاستمرارية وجود الأمة أو لقيام وحدتها ، بل لعلهما يظلان مشروطين بالسياسة وبالقرار السياسي أو الإرادة السياسية التي تحركهما، فالوحدة التي نريد لها أن تقوم هي شكل من أشكال الترابط والتكامل والوحدة السياسية لأجزاء الأمة، والثقافة القومية نريد لها أن تحرك الأمة وشعوبها ومجتمعاتها، أي أن تؤدي دوراً سياسياً وتصبح سياسة، حين تجد تعبيرها في تشكل الاندماج القومي للمجتمعات، وفي تشكل القوى والحركات السياسية، بل الاجتماعية- الثقافية- السياسية المعبرة عنها والمتطلعة إلى المصلحة العامة للأمة الواحدة .

ماوقفت عند هذه المسألة، مسألة الثقافة ودور نخبنا الثقافية والسياسية، أو الثقافية- السياسية في إعادة تأسيس الدولة القومية في المجتمع وصياغة الاندماج القومي للمجتمع، هذا الدور الذي تحتاجه الأمة، وبخاصة في هذه الحقبة من تعثر طريق وحدتها ومن المتغيرات الكبرى من حولها، ومن المداهمات التي تخترقها ، إلا لأشير لما كان من خلفية سلبية، ومن دور سلبي لتأخر حركة تقدمنا والاندماج القومي لمجتمعاتنا. ولقد تجسد هذا أيضاً، وبشكل أكثر خطورة، في التشكل الايديولوجي والسياسي لأحزابنا السياسية و " الطليعية " والثورية والتقدمية . وكان هناك من نتائج كارثية لخلافات هذه القوى وانقساماتها الايديولوجية، وصراعاتها على السلطة ، ومسؤوليتها عن إضاعة فرص تاريخية كبرى قامت، للتقدم بوحدة الأمة ونهوضها، حيث ثبت في النهاية، أن هذه القوى تقوم هي أيضاً في تكوينها على قصور في اندماجها العربي، وفي تركيبها العصبوي والفئوي، وفي قدرتها على قيادة الأمة في تلك المرحلة التاريخية أو في التلاؤم مع متطلبات تلك المرحلة وضروراتها. ثم أن الوقوف عند تلك المسألة ومراجعة قصوراتها أصبح ضرورة أيضاً ، وفي هذه المرحلة بالذات، حين نطالب بتجديد بناء حركتنا القومية وقوانا وتجمعاتنا الثقافية والسياسية، تعلماً من عثرات الماضي، وتطلعاً إلى المستقبل.

لقد جاءتنا فرص تاريخية دفعت في سبيلها شعوبنا الكثير من التضحيات، ولكن القيادات السياسية تلك، لم تكن في مستواها، ولكم ضيعنا من فرص. وأريد هنا أن أقف قليلاً عند مرحلة بلغت فيها الحركة القومية الوحدوية ذروة تأججها الثوري على الصعيد الشعبي وفجرت ثورات، وأذكر كيف كان وعينا لها وتبصرنا فيها. كان ذلك في سورية في تلك الحقبة التي يسمونها بحقبة الانفصال بعد اغتيال وحدة القطرين في ٢٨ أيلول عام ١٩٦١ وما تلى ذلك... وأشير هنا إلى تجربة مررت بها، أو محاولة قمت بها مع مجموعة من الأصدقاء، جمعت بيننا رؤية مشتركة للمخاطر التي أخذت تتهدد هدف الوحدة العربية بعد طعنة الانفصال، وتلمس نهج لتعود وتمسك حركة الثورة العربية بمبادرتها التاريخية، ولتصوغ ترابط ووحدة قواها. وكنا نقول لعل تلك القوى والتيارات السياسية المتنطعة للقيادة، والمسماة بقوى التقدم والثورة، قد تعلمت من نكسة ثورة ١٤ تموز في العراق وارتدادها عن الوحدة إلى القطرية، وكذلك من نكسة الانفصال وما أدى إليه تفرقها ونزاعاتها.

ففي عام ١٩٦٢ ومع بدايات عام ١٩٦٣، كنا نعيش هنا في سورية حالة انتقالية من التخبط السياسي والثقافي، وكذلك من الصراعات الحادة بين القوى ، حول المواقف من تجربة الوحدة والانفصال والرجاء بتجديد المسار الوحدوي ، في وقت أصبح من الواضح فيه تماماً أن نظام الحكم الانفصالي أصبح عاجزاً عن الاستمرارية، في مواجهة الموجة الشعبية الوحدوية الصاعدة في معارضته والمنادية بإعادة تجديد الوحدة . هذا في الوقت الذي ظلت فيه مصر عبد الناصر، مصرة على أن تبقى " جمهورية عربية متحدة " ودولة للأمة العربية الواحدة ، ملاذاً لحركة ا لثورة العربية ، ودعماً لها حيثما تفجرت .

وجاء الميثاق الوطني لعبد الناصر ليقدم دليل عمل لتلك المرحلة. وكان أن تفجرت في الوقت ذاته الثورة القومية في اليمن، كما جاء الانتصار الرائع لثورة الجزائر التي توحدت من حولها وفي دعمها ومناصرتها شعوب الأمة وقواها كلها، كل ذلك خلق مناخاً لوحدة الأمة لم يسبق له مثيل، ثم جاءت ثورة ٨ شباط في العراق لتبشر في بداياتها بالوحدة وبأنها تصب مع القاهرة في تيار وحدوي ثوري واحد، وأن لا محاور أخرى بعد اليوم تباعد بين القاهرة وبغداد ولا انقسام . وفي أعقابها قامت ثورة الثامن من آذار في دمشق تعلن أنها الثأر من الانفصال وتبشر بعودة الوحدة ، هذا، قبل أن يمسك بزمام السلطة من يلوي عنق تلك الثورة ويحول اتجاهها.

تلك كانت فرصة تاريخية كبرى للأمة ضاعت، وحركة نهوض لحركة الشعوب وراء هدف واحد، ما لبث أن أحبطت وشتتت ليتكرس الانفصال من جديد، وليقوم من ينادي بتعدد البؤر الثورية وتعدد التجارب، لتصبح في ما بعد تكريساً جديداً للقطرية والتجزئة . ذلك أن القوى والقيادات التي صعدت إلى السلطة وسيطرت على القرار السياسي وعلى قوة التغيير، لم تكن على مستوى وعي ذلك الظرف التاريخي وما يمكن أن تتقدم إليه ثورة الأمة، بل كانت في طموحاتها السلطوية ومنظوراتها، دونه بكثير. إنها لم تضع نفسها في سياق ذلك النهوض الشعبي التاريخي للأمة ولا في أي مسار تاريخي للأمة على طريق الوحدة ، وليس هذا فحسب ، بل هي أخذت ترتد إلى انقسام وانتكاس، داخل مجتمعاتها، مؤكدة مرة جديدة، صحة المقولة الهيغلية، في أن الأمة التي تجد نفسها أمام فرصة أو ضرورة تاريخية لإقامة وحدتها القومية ولا تمسك بها، ترتد إلى عهود بربريتها، أي إلى انقساماتها ونزاعاتها ما قبل القومية.

تجربتا " الفكر السياسي " و " المؤتمر القومي العربي "

أشرت قبل قليل إلى تجربة أو محاولة قمت بها مع مجموعة من الأصدقاء جمعت بيننا رؤية مشتركة لما يجري وللفرصة التاريخية المتاحة للتقدم على طريق وحدة الأمة ، وان لم نستطع أن نصل في تلك التجربة والحوار المعلن- أو لم يكن تصميمنا في النهاية قاطعاً - لتشكيل حالة قومية أو نهج قومي مناسب في التجمع والعمل . ففي تلك الفترة ، أي فترة ٦٢، ٦٣، كنا نلتقي ونتحاور حول ما يجري، كعناصر ثقافية- سياسية، ومددنا الحوار إلى ما حولنا، وكدنا نشكل مجموعة عمل . كان لكل منا نشأته السياسية والثقافية والتزاماته الايديولوجية والحزبية في تجارب سابقة. لكننا كنا قد استطعنا أن نقيم مسافة بيننا وبين القيادات السياسية الحزبية التي كانت تصطرع على الإمساك بقوى التغيير، وصولاً إلى السلطة، وكانت كلها " أحزاب ثورية " و " أحزاب قائدة "، كأنها بمجرد أن تصل إلى السلطة بقوة العسكر، ستقدم تجربتها الخاصة التي ستتقدم بها على ما سبق من تجارب وستحقق المعجزة ، أي الثورة- الأكذوبة.

في تجمعنا الجديد المتعدد المنابت الثقافية أو الايديولوجية، كنا في المقدمة أربعة أشخاص، أنا البعثي العتيق والخارج على عصبية الحزب والمطالب بإعادة تأسيسه في نهج وحدوي وتوثيق روابطه بالحركة الناصرية الشعبية، وعبد الكريم زهور ذلك العروبي الوحدوي الذي لا يلين والذي كان يقدم مطلب وحدة الأمة على كل مطلب أو إنجاز تقدمي ، إذ تبقى الوحدة العربية وحدها أساس كل تقدم وإطار كل نهوض،

وكان يقول بالطهرية الثورية شرطاً للعمل السياسي والقيادات السياسية، ثم الياس مرقص ذلك العقل الفلسفي والتفكير العقلاني الناقد، بل المفكر الأول والمنظر الأول للماركسية العربية والذي كان يقدم، ماركسياً ولينينياً ، مطلب وحدة الأمة العربية والاندماج القومي للأمة، طريقاً إلى أية أممية أو روابط بين الأمم ، وياسين الحافظ ذلك المنظر الماركسي اللينيني أيضاً والعروبي الوحدوي، والذي كان أفتانا وأسرعنا في التعبير وفي العمل واقامة العلاقات . ثم رفدنا سامي الدروبي بحسه العروبي الوحدوي المرهف ثم الناصري ، كذلك بترجماته المنتقاة . والتف حولنا آخرون وكأننا بمثل هذا التلاقي والتجمع، كنا نتطلع إلى إطار أكثر ديمقراطية، وأكثر تعددية واتساعاً لحركة القومية العربية، ليضم كل الذين يلتقون على الوحدة، وحدة الهدف . ولكن وعينا السياسي والديمقراطي في تلك المرحلة، لم يصل بنا إلى أن نجعل من ذلك قاعدة لإعادة تأسيس الحركة القومية كحركة موحدة، بل رحنا نتلمس السبيل إلى إيجاد صيغ للتعاون والتحالف الجبهوي بين القوى القومية المصطرعة في الساحة.

فتجاوزاً للأحزاب المشكلة من قبل أو التي كانت تعيد تشكيلها، وتجاوزاً للانقسامات الحزبية والصراعات داخلها وفي ما بينها على السلطة، وتجاوزاً للإيديولوجيات المسبقة الصنع أو التي كانت تلفق تلفيقاً لتدارك الحاجة، استطعنا أن نتجمع ونمسك بمنهج أولي وطريق تلاقت عليه قناعاتنا وأفكارنا وارادتنا المشتركة، وهي الدفع الدؤوب نحو الوحدة العربية، والوحدة اليوم لا في المستقبل غير المنظور، وأن لا طريق لأي تقدم حقيقي وتحرر ونهوض للأمة إلا طريق الوحدة، نهجاً واطاراً للعمران العربي من جديد ، والتقت قناعاتنا على أن قيادة عبد الناصر والتفاف حركة الجماهير حولها، وأن حضور عبد الناصر في حياة الأمة وقيام مصر عبد الناصر كمرتكز وحدة ونضال لقوى الأمة، هي فرصتنا التاريخية التي لا يجوز تفويتها . وصار همنا اليومي السعي لتعود وتتجدد وحدة القطرين، سورية ومصر، وعلى قواعد أكثر ثباتاً وتصميماً وأكثر ديمقراطية ومشاركة. وأخذنا نتطلع إلى نهج جديد في العمل الثقافي-السياسي نتجاوز به، وعلى صعيد المجتمع، فرقة الأحزاب والقوى، وما يعشش فيها من نزعات فئوية وفردية وتطلعات سلطوية واعتماد الكثير منها على ما تمسك به أو يمسك بها من قوى عسكرية، أصبحت سبيلها إلى التغيير والسلطة. أصدرنا مجموعات كتابية تعبر عن توجهاتنا وأفكارنا، وكتبنا مقالات مطولة وترجمنا كتباً تصب في اتجاهنا، ووضعنا عنواناً عاماً لما صدر عنا : " الفكر السياسي "، أي وضع الفكر والمعرفة في مقدمة العمل ولتكون دليلاً للتجمع والتنظيم والدفع نحو الهدف.

تلك تجربة لم تطل، ولم نقو على الاستمرار فيها ، وسحبتنا حركة الأحداث وشتتت شملنا، تلك فرصة ضاعت. إن رفاق تلك التجربة صاروا في ديار الآخرة، إلا أن أفكارهم مازالت ترافقني، حين أجدني اليوم، وكأننا نجدد تلك التجربة، أو نتطلع إلى تجديدها، وندعو لتجمع قومي ديمقراطي يعطي حركة ويعطي أملاً في المستقبل . إنها ليست دعوة إلى الماضي، ذلك الذي فات زمانه ورجاله، ولا للفرص الضائعة، وانما هي محاولة للتعلم من التجربة والمعاناة لنظل نتطلع بتفاؤل الإرادة إلى المستقبل.

وهكذا، فإن تطلعاتنا المستقبلية، لا تعود مقطوعة عن الجذور، ولا تشكل قطيعة مع الماضي، وما كان لنا فيه من نهوض، وما قدم من مرتكزات للنهوض، دمرتها وقطعت ما بيننا وبينها حركة الردة، إلا أنها تبقى في الذاكرة والخيال، مرتكزات قام عليها بناء يمكن أن يعود ويقوم من جديد، كما تبقى أمامنا تلك التطلعات الاستراتيجية التي كانت تدل إلى الأهداف وإلى طريق المستقبل، فضلاً عما دفعت إليه من دوائر حركة وتفاعل مع الجوار ومع العالم .

والنهضة تبقى حركة تقدم وتجاوز لما مضى وتطلع لما سبق، إلا أنها في الوقت ذاته اغتناء أيضاً بالتجربة وبما كان .

وفي وجه المتحركين اليوم ضد نهجنا القومي، والقائلين بأن نهجنا هذا أصبح متأخراً عن حركة العالم وحركة الأحداث ، وإن عصر القوميات والتوحد القومي قد انتهى، كما ولى عصر الايديولوجيات، بل

وحتى الأمميات والروابط بين الأمم ، وفي وجه المبشرين بعالمية جديدة، ما هي إلا عالمية هذه الرأسمالية الطاغية في العالم والتي تتحكم في مصائر المجتمعات والبشر... نعود ونجدد خطابنا القومي العربي وهو خطاب لا بد له من أن يغتني بالضرورة بمضامين جديدة وأن يتعامل مع الواقع وحركة المجتمعات.

والقوى بمعايير أكثر انفتاحاً ، تستوعب ما تغير وتستجيب لما هو آت، وهو خطاب لم يعد يوجه لفئة معينة من فئات الأمة أو طائفة أو طبقة، بل هو يقوم لتلتقي عنده القوى الاجتماعية والسياسية والثقافية على مختلف تياراتها. فهو خطاب قام ليؤلف بين قوى الأمة وليجمع . والدعوة القومية بالأصل، وبالنسبة لأمة تعاني من تبعثرها القومي، ومن التجزئة والحواجز بين شعوبها وأقطارها،- والقسر والتحكم من داخلها، ومن قوى الهيمنة من خارجها- تشكل دعوة للحركة والعمل ولتكتل قوى الأمة والتجمع والتوحد، وللانعتاق من العصبيات والتعصب، ولإزالة الفوا صل والحواجز والحدود بين المجتمعات والشعوب والأقطار العربية، ولتثبيتها وتعزيزها بينها وبين أعدائها كي ترد عنها كيد أعدائها وهيمنة الآخرين على مصائرها وأقدارها.

إنني ومن خلال الممارسة والمشاركة، وجدت مثل هذا التطور والتقدم في المنهج القومي، يلقى تعبيره في الخطاب المنطلق من منابر " المؤتمر القومي العربي " وما جمع، وفي ما يمت إليه بنسب من مراكز ثقافية يتصدرها " مركز دراسات الوحدة العربية "... وفي مواقف ذلك المؤتمر ودعوته ونشراته. وهو إذ يطمح في تأسيسه ومؤسساته وما يعد به، لأن يشكل مرجعية فكرية- سياسية، للعمل القومي العربي على الصعيد الشعبي وامتداداته في الوطن العربي الكبير بكل أقطاره ، فقد جعل الالتزام بنهجه القومي، التزاماً " بقضايا الأمة العربية ووحدتها " وللدعوة للتحرك والتبشير والعمل ، انطلاقاً من مشروع للنهوض القومي يقوم على ست قواعد ومنطلقات . أما الحركة القومية أو الصيغة التي طرحها للتحرك القومي نحو الوحدة العربية من جديد ، فقد جعل منها إطاراً لتجمع كل القوى والتيارات والرموز الفكرية والسياسية التي تقول بالعمل لوحدة الأمة وتأخذ بمشروع نهوضها المتجدد، أياً ما تعددت منطلقاتها الايديولوجية السابقة أو مناهلها الفكرية ومراجعها التنظيمية ، من قومية ديمقراطية إلى إسلامية عروبية، ومن ليبرالية إلى يسارية وماركسية عروبية أيضاً . بل لقد وجد هذا المنبر القومي الجامع صيغاً للحوار والانفتاح على الإسلام السياسي وعلى الحركات السياسية التي تقوم بايديولوجية إسلامية من خلال التأكيد على الديمقراطية ومبدأ الحوار الديمقراطي والقبول بالتعددية...، والاحتكام للعقلانية في السياسة لمصلحة الجماعة، وكذلك على التكامل الثقافي والحضاري بين العروبة والإسلام في تطلع للتجديد والتجدد الحضاري، وتأكيد على المواقف الموحدة والتضامن في وجه أعداء الأمة والحلف الامبريالي الصهيوني المعادي، وعلى تقديم قضية الوحدة العربية منطلقاً لأي تطلع أو امتداد إلى دائرة أوسع ، من دوائر الحوار الجغرافي والحضاري .

لعلني أعطيت لهذا النهج في العمل القومي دوراً بارزاً في وقت لم يثبت فيه بعد قدرته على الاستمرارية والتقدم وعلى وضع برامجه موضع التطبيق، فمثل هذا التحرك ومثل هذا التأسيس لعمل قومي متجدد وما يقول به من استنهاض لقوى الأمة وتجديد مسيرة نهوضها، إذا كان قد حقق قدراً من التقدم في التأليف بين مجموعات من النخب الثقافية العربية التي تلتقي على التوجهات التي يعلنها في دعوته، وامتداداً بها إلى أرجاء الوطن العربي، واستطاع أن يقيم عدداً من المنابر والتجمعات القومية في هذا القطر أو ذاك بتحركات ناشطة من بعض مؤسساته والمراكز الثقافية والإعلامية المتعاونة معه، وإذا كان قد خاض معارك مشرفة في الإعلام عن توجهاته ومواقفه السياسية من قضايا الأمة وعلى صعيد نشر الثقافة والفكر القومي المتجدد، وفي مواجهة الفكر الآخر والمناقض، وفي مواجهة غزو الثقافة " الشرق أوسطية " ودعاة الاستسلام باسم السلام فإنه في الوقت ذاته مايزال يعاني من قصوراته الذاتية ومن ضعف وسائله وإمكاناته ومن محاولات احتواء الأنظمة الثقافية أو رفضها ومضايقتها، لكنه، من حيث المبدأ، قد أمسك ببداية سليمة. والبداية السليمة ليست فقط في تقديم قضية وحدة الأمة على كل قضية بل

والأخذ بمبدأ الاستقلالية عن الأنظمة والحكومات ، كل الأنظمة والحكومات، وبمبدأ الديمقراطية الكاملة وممارسة الديمقراطية كاملة، حواراً أو تعاملاً وتنظيماً ، في إطار مجموعة من النخب القومية الملتزمة، لتعطي القدوة والمثل . والمؤتمر القومي يقول دائماً بالمنطلق الديمقراطي في كل توجه أو عمل وبناء ، وبمبدأ الدفاع عن الحريات العامة في الوطن العربي وعن حقوق الإنسان وكرامة المواطنين . كما تتركز مواقف المؤتمر القومي هذا في المرحلة الراهنة على معارضة مسارات التسوية الاستسلامية الدائرة ، وعلى مقاومة التحرك الصهيوني- الأميركي ومشاريعه في إخضاع المنطقة لهيمنته، ويظل يرفع في المواجهة مشروعه للنهوض القومي . هذه إرهاصات لعمل قومي على المستوى العربي الشامل يتطلع للمستقبل . وهو لا يحجب، بل يقول بالحض على تعدد مثل هذه المبادرات للتجمع والعمل على الصعيد القومي، ولعله بذلك وبما أعطاه لحركته من استقلالية ولما يعد به، يواجه معارضة من قبل الأنظمة والحكومات العربية، وإذا كان هذا يدخل في الطبيعة اللاديمقراطية والسلطوية التسلطية لفئاتنا الحاكمة التي لا تسمح بقيام أي عمل سياسي مستقل عنها أو يقف بالضرورة في معارضتها، فإن المعوق الآخر هو ما آلت إليه حال مجتمعاتنا من تفتت وما تراجعت إليه من صيغ متأخرة في الروابط والعلاقات الاجتماعية تقف بها دون تشكلها كمجتمعات قومية حديثة ودون اندماجها القومي، وكذلك تبقى تعبيراتها الايديولوجية والسياسية .

إنني ما وقفت هكذا استطراداً عند تجربة " المؤتمر القومي العربي "، كأنها قدمت أخيراً الحل لأزمة حركة القومية العربية ولتفرق قواها وتعثر طريقها، ولكنني وقفت عند هذه التجربة من حيث قدمت إطاراً عاماً لتلاقي طلائع قوى الأمة وتجمعها وتوحدها حول هدف الوحدة وقدمت مشروعاً أو خطوط مشروع عام يمكن أن تلتقي عليه برامجها وتطلعاتها . ولكنه، أي هذا المؤتمر والتجمع القومي- وهو الذي أراد أن يربط بين النظرية والممارسة، بين الأخذ بفكرة الوحدة العربية وضرورتها وإعطاء هذه الفكرة حركتها والصيغ الإجرائية للتقدم على طريقها وتنظيم أدوات نضالها وتجمع قواها- ظل في تركيبته وامكاناته قاصراً عن الوفاء بمثل هذا الدور الذي قام من أجله. والبعض يقول : " يكفيه في هذا الظرف أن يظل منبراً للخطاب القومي ودعوة للوحدة ، حفاظاً على الفكرة وليظل ملتقى مفتوحاً للحوار الديمقراطي بين تعددية الآراء وتعددية القوى" . إلا أنه من المخيب للآمال أن يكون هذا كل ما يمكن أن يعطيه العمل القومي في هذه المرحلة . فهذا المؤتمر أو التجمع القومي، لم يأت من فراغ ، بل جاء نتيجة مخاض طويل وبعد ندوات ولقاءات كثيرة بين مجموعات ثقافية وسياسية وحدوية النزعة والتصميم يعذبها ما آلت إليه أحوال الأمة بعد انحسار التيار الشعبي الناصري الواسع في الوطن العربي، وارتداده بعد غياب عبد الناصر، وفي كثير منه إلى المواقع التقليدية وما قبل القومية في مجتمعاته، وبعد التكسر والتبعثر الذي أصاب القوى والأحزاب القومية القائلة بالثورية والثورة ، وما انتكست وارتدت إليه من " قطرية " وفئوية تلك الأنظمة التي قامت باسم القومية (والثورة) . وكانت ومازالت هناك مقولات لعبد الناصر تطرح نفسها في ساحة العمل القومي ولدى تلك المجموعات. فعبد الناصر، وأمام تبعثر التجارب والمحاولات الوحدوية عام ١٩٦٣، أخذ ينادي بضرورة وحدة تيار الثورة العربية كثورة قومية ديمقراطية، وبضرورة توحيد أدوات هذه الثورة وقواها، أو ما أصبح يطرح تحت عنوان " الحركة العربية الواحدة "، وكأن أمامها مقولة ميثاق عبد الناصر من " أن قيام اتحاد للحركات الشعبية الوطنية التقدمية في الوطن العربي أمر سيفرض نفسه على المراحل القادمة من النضال ". ولكن أين هي اليوم حركاتنا الشعبية وماذا صارت إليه مجتمعاتنا؟ فمنذ عام ١٩٦٣ حتى اليوم قد تغير الكثير، وتلك الحركات التي كان الخطاب الناصري يتوجه إليها قد تراجعت أو تهمشت. أي إن تلك المقولات لم يعد لها من رصيد على أرض الواقع، وحركة المجتمعات العربية وكل شيء أصبح بحاجة للمراجعة واعادة البناء. و " المؤتمر القومي العربي " حين جاء واعداً بالخروج من ذلك العثار الكبير الذي تتعثر به حركة القومية العربية، وجد نفسه أمام ماقام من افتراق بين حركة الثقافة والأفكار وما تقدمت إليه طلائعنا الثقافية القومية وبين حركة المجتمعات المتراجعة تحت وطأة نظم الاستبداد القطرية، بحيث أصبحت تلك الطلائع وكأنها في غربة عن مجتمعاتها، وليست تعبيراً عن ما تقدمت إليه روابطها وعلاقاتها كمجتمعات مندمجة قومياً وتحمل هوية الأمة وآمالها الوحدوية . تلك هي الإشكالية التي

مازالت تجربة " المؤتمر القومي العربي "، مقصرة عن إيجاد مخرج منها، مما يقطع الترابط والتكامل بين الفكرة والممارسة، بين قضية القومية العربية ومشروع النهوض القومي وتوجهه وبين الصيغ الإجرائية والأدوات الفعلية التي تتقدم بها، بحيث لا تعود طلائعنا الثقافية والسياسية المختارة هذه ونخبنا القومية إلا طلائع لذاتها، وليست طلائع لمجتمعاتها وفئاتها الاجتماعية وشعوبها، وحيث يحال بينها وبين أن تكون طلائعها العضوية والمتحركة بها، بألف حاجز وبكل الزواجر والتحريمات من الأنظمة . إن الاكتفاء بمثل هذا الحضور من فوق ، ذلك الحضور المعرفي شبه الارستقراطي والمكتفي بذاته، لا يعود سياسة، ولا يعود حركة فعل وتغيير تعبيراً عن إرادة جماعية في التغيير. إلا أنه هناك، في المقابل، طلائع قومية (ثقافية- سياسية) تدفع على طريق مختلفة (وقد تكون مكملة إذا ما ترافقت مع الأولى) إذ ترى أن نقطة البداية للتحرك القومي والاستنهاض القومي، إنما تبدأ وتقوم من تحرير مجتمعاتها لتكون مرتكز الاندماج القومي، ولهذا فإن معركة الديمقراطية والدعوة للتغيير الديمقراطي في المجتمع وأنظمة الحكم وإطلاق الحريات العامة ومبادزات الشعوب، تعتبر أشرف المعارك التي يمكن أن تخوضها نخبنا الملتزمة بالهدف القومي وقضايا تحرير الأمة ووحدتها، لأنها بهذا النهج تضع الفكرة في السياسة، أي في الممارسة وارادة البشر، وتضع السياسة في المجتمع وتصنع الطريق أمام تجدد حركاتنا القومية وتجدد حركة الشعوب وتدفع لأن يجد العمل القومي وعلى الصعيد القومي، منبراً له ومرتكزات، على صعيد كل قطر عربي ومجتمع ، وبهذا نقيم الترابط بين الفكر والممارسة، بين المشروع وبين مرتكزاته الإجرائية .

لست هنا بصدد بحث نظري عن القومية العربية كما قلت من البداية، وإنما أتابع حركتها وما يتحرك بها من قوى ومؤسسات، أملاً بوصل ما انقطع من ديناميكيتها المحركة لنهضة الأمة وثورتها على واقع التجزئة وتبعثر القوى ووا قع التخلف والخضوع والتابعية. وتجربة " المؤتمر القومي العربي " هي واحدة من أبرز المحاولات التي قامت لوصل ما انقطع ، كما أنها تدل في الوقت ذاته، على كل مواطن الضعف في حركتنا القومية. وأولها أن هذا التجمع القومي سيجد نفسه في غربة أو ستفرض عليه الغربة والتراجع والجمود، ما لم يجد موئلاً ومرتكزاً في مجتمع عربي حر ومستقل عن استتباع الأنظمة. وسأقف عند بعض من منطلقات ذلك المؤتمر ومقولاته، منطلقاً إلى ما يمكن أن تحركه وتدفع إليه للخروج من هذا الواقع أو المأزق ، عن قناعة بأنها صالحة كمنطلق لأي عمل قومي جماعي.

إن المؤتمر القومي العربي، وقد أراده مؤسسوه والمجتمعون في إطاره من نخب قومية، ليكون مرجعية شعبية لتجديد حركة القومية العربية ولتحرك قومي ديمقراطي وحدوي جديد، قال في نظامه الأساسي بـ " الإسهام " في شحذ الوعي العربي بأهداف الأمة المتمثلة في مشروعها الحضاري، وهي الوحدة العربية والديمقراطية والتنمية المستقلة والعدالة الاجتماعية والاستقلال الوطني والقومي والتجدد الحضاري... ويعمل في سبيل تعبئة طاقات الشعوب العربية من أجل تحقيق هذه الأهداف.

ولكن هذه المقولات أو القواعد للنهوض القومي، التي انتهت إليها طلائع ونخب قومية، استخلاصاً لتجربة الماضي، وما أعطت في هذا الاتجاه ، وتطلعاً للتجديد ولمستقبل ناهض، تبقى مجرد عناوين وأفكاراً عامة، أو هي تتحول، بحكم التكرار ومن غير رصيد، على أرض الواقع والفعل، إلى ضرب من الغطاء الإيديولوجي الخادع والذي يخفي العجز، مثلما آلت إليه مقولات " الوحدة والحرية والاشتراكية " التي قامت عليها وباسمها ولتحقيقها، أنظمة ثورية " عربية، ونرى اليوم ما آلت إليه أحوالها من افتراق كامل وتناقض مع كل ما توحي به تلك المقولات والشعارات . فليكون هناك تجديد للمسار القومي نحو وحدة الأمة وتقدمها، وليكون هنالك تحرك قومي يستدل بهذا المشروع القومي للنهوض، ولتقوم حركة قومية موحدة أو حركات في هذا ا لاتجاه ، لا بد أن تعطى هذه المقولات- الأهداف مضامينها وديناميكيتها وترابطها ببعضها وخطوات إنجاز مهماتها وما تقدمه من أولويات. فالاستقلال الوطني والقومي ومقولات الديمقراطية والتنمية المستقلة والعدالة الاجتماعية، إذا كانت أهدافاً متكاملة، وهي التي ترسي المداميك الأساسية للوحدة العربية، لتجددنا الحضاري ومشاركتنا الإنسانية، فلا بد من أن يعطي

لها مداخلها وخطواتها، وأن تأخذ صيغها الإجرائية وتتشكل عليها تنظيماتها ومؤسساتها وقواها، بل وإعادة تسييس مجتمعاتها المدنية وتشكيلها كمجتمعات قومية حديثة. فالتوعية وشحذ الوعي بتلك المقومات لنهوض الأمة وبضرورة وحدتها لا بد أن يكون في الوقت ذاته وعياً، لا لبس فيه، للواقع العربي المتراجع والمنافي لكل تلك المطالب والمقولات . وكذلك إدراكاً لكل ما يعترض سبيلها من قوى ومصالح فئوية قائمة ومن معوقات، وهي معوقات لا في النظم القطرية والطبقات المتحكمة فحسب، بل وفي المجتمعات وما ترتد إليه من روابط وعصبيات ومعتقدات دون القومية والاستدلال بالصالح العام والمصلحة العامة للأمة. فالذي عانيناه وسنظل نعاني منه في صياغة حركة قومية فاعلة وعمل قومي من جديد، بعد تراجع واندحار وانتكاس الحركات والأحزاب القومية التي قامت في الحقب الماضية، وعند أية عملية تأسيس جديدة أو إعادة تأسيس وإقامة مؤسسات ذات طابع قومي معمم بين النخب، سيبقى ذلك التأسيس وتبقى مؤسساته معلقة في الفراغ ومقطوعة الجذور، ما لم تجد مرتكزات لها وقواعد ثابتة في مجتمعاتها الوطنية. لقد كان الاستعمار، بعد التبعثر القومي الذي سبقه، هو الذي أقام في مرحلة مضت الحواجز بين الأقطار والمجتمعات العربية، وكذلك الحواجز داخل المجتمعات. ولكن أنظمتنا القطرية العربية القائمة وما آلت إليه سلطاتها، أصبحت تقيم من الحواجز والمعوقات أكثر مما أقام الاستعمار، وهي تبتعد أكثر فأكثر عن أية رؤية قومية، أو مصلحة مشتركة. وإلا فماذا يعني مثل هذا التقاتل على الحدود وعلى مساحات من الأرض أو آبار من الزيت؟ والأنكى أن تقوم مثل هذه الخلافات بين الأقطار الخليجية أو أقطار الجزيرة العربية، التي تجمع بينها غير روابط العروبة، تكتلات " مجالس التعاون " إقليمية، ولا ننسى ما قام ويقوم بين بعضها من حصارات ومقاطعات وإغلاق حدود.

الاستقلال الوطني والقومي

وأبدأ بمقولة الاستقلال الوطني والقومي التي جاء عليها "مشروع النهوض " وإن لم تأت في المقدمة أو تعطى الأولوية، إذ هي تبدو للبعض وكأنها في حساب الماضي بعد أن نالت أقطارنا العربية كلها استقلالها الوطني وأصبحت دولاً مستقلة في شرعة الأمم واصبحت أعضاء في الجمعية العمومية للأمم المتحدة، مع أن العديد منها مشدود بأشكال مختلفة من روابط التابعية لمراكز الهيمنة الامبريالية، ومازال لدينا أراض عربية تحت الاحتلال الأجنبي وكذلك تقوم قواعد عسكرية أجنبية وسياسية أحلاف مع الخارج في عدد من المواقع العربية. ولكن مبدأ الاستقلال الوطني والقومي، فضلاً عما يطرحه من جديد من عمليات تحرير واستقلال، فإنني أخذت به أول ما أخذت كمبدأ في العمل القومي والتعامل مع الحركة القومية الناشئة، من حيث أنه يؤكد على استقلالية الحركة عن الأنظمة القطرية العربية الحاكمة، وما تشد إليه من عمليات احتواء أو تابعية وارتباط ، كذلك التأكيد على مطلب التغيير الديمقراطي واستقلالية المجتمعات عن الخضوع لأنظمة الحكم المطلق والشمولية.

ففي الماضي، وفي حقبة السيطرة الاستعمارية على منطقتنا العربية، وتقسيم أقطارنا بين مستعمرات ومحميات وأقطار تحت الوصاية والانتداب، واحتلال جيوش وتملك قراعد عسكرية واستعمار استيطاني وإلحاق... وما ساد في مشرقنا العربي من نظام شرق أوسطي حسب توزيع اتفاقات سايكس- بيكو ووعد بلفور، كان مبدأ أو شعار الاستقلال الوطني والقومي، يعني أولاً النضال الوطني لكل قطر عربي للتحرر من الاستعمار والتدخل الأجنبي، ثم أن تقوم الأقطار العربية المستقلة أو التي نالت استقلالها، بمساندة بقية الأقطار العربية لتحظى باستقلالها وحريتها، وليكون ذلك التحرر الوطني من الاستعمار الأجنبي مدخلاً إلى التقدم والتحرير الداخلي وإلى البناء الديمقراطي والتحديث أو الاندماج القومي لمجتمعاتنا، ولنظمنا الوطنية كدول وأنظمة للأمة، أي ذات هوية وانتماء قومي (وعلى هذا قامت دساتيرنا الوطنية)، وأن يكون الاستقلال الوطني والقومي والبناء الديمقراطي وتحرير إرادة الشعوب المدخل إلى الوحدة العربية الشاملة والى النهوض الحضاري من جديد لأمتنا.

وجامعة الدول العربية ، ومع كل الملابسات التي أحاطت قيامها في منتصف الأربعينات، ومع نهايات الحرب العالمية الثانية (حيث حثت على قيامها حكومة بريطانيا العظمى ذلك الحين) فقد قامت كمنظمة إقليمية وكجامعة بين حكومات عربية، وأسستها أول ما تأسست ست أو سبع دول عربية بين مستقلة وشبه مستقلة أو على طريق الاستقلال ، واشترطت لعضويتها الاستقلال الوطني للقطر العربي الذي يطلب الانضمام لعضويتها، وجاء ميثاقها تحت شعار العمل من أجل الوحدة العربية ومناصرة بقية الأقطار العربية لتحظى باستقلالها. ثم جاء بعد ذلك ميثاق التضامن الجماعي بين أعضاء الجامعة ثم ميثاق الأمن القومي والدفاع المشترك... ونقف عند هذا الحد من شؤون تلك "الجامعة" من غير أن نخوض في ما آلت إليه أحوالها والتزامات أطرافها بتلك الروابط والمواثيق، فهي قامت أصلاً جامعة للحكومات وتحولت حسب تحول روابطها.

وبعد هذا التجسيد الضعيف ، والبعيد كل البعد عن تطلعات الشعوب ونخبها القومية للروابط القومية والوحدة القومية، ضمن ظروف الأربعينات من هذا القرن، ما لبثت حركة القومية العربية أن أخذت مدها الثوري، ونهوضها التحرري، ونهجها القاطع ضد الاستعمار بأشكاله القديمة والجديدة، وضد الأحلاف والتحالفات مع الأجنبي وضد مواقع النفوذ والهيمنة الخارجية. وكانت الحقبة الناصرية حقبة نهوض قومي حقيقي وثورة ، وصار لنا برغم كل القصورات التي كانت في حركة تقدم مجتمعاتنا وقوانا، وبرغم كل الصعوبات والنكسات، صار لنا حضورنا كأمة على الساحة الدولية وفي العلاقات بين الشعوب والأمم ، إلى أن جاءتنا الردة والنكسة من داخلنا... لقد قلت قبل قليل، إننا في الشرعية الدولية دول عربية مستقلة، ومستقلة عن بعضها أولاً وكما أراد لها الغرب، لتصبح أقبل للانصياع والتابعية، وهكذا فإنها فقدت الكثير من مقومات استقلالها الوطني، وتنميتها الاقتصادية لم تعد تملك مقوماتها الوطنية ولا حاملة لأي مقوم من مقومات الاكتفاء والاستقلالية، بل أصبحت نهباً في الداخل ونهباً في الخارج وتكريساً لروابط التابعية.

ولهذا كله لابد لنا من أن نعود ونقدم مبدأ الاستقلال الوطني والقومي، انطلاقاً من الداخل ومن ربطه بالنهج الديمقراطي في التغيير، وفي استعادة حرية الوطن وحرية المواطن . فلم يعد إلا الديمقراطية وتحرير المجتمعات وتحرير إرادة الشعوب، رافعة وطريقاً للوحدة العربية، ومدخلاً لتكامل إقتصادي عربي وسوق عربية مشتركة. ولا يمكن بغير هذا من إمكانية لتنمية مستقلة على الصعيد العربي وللخروج من الاستتباع والتابعية، وليس إلا بالأمة العربية كلها وبكل طاقاتها وإمكاناتها، " أمة واحدة موحدة وكتلة واحدة "، ما يقوى على البقاء وعلى النهوض والتعامل مع الظروف الدولية الراهنة ومع تحديات المستقبل . وفي هذا السبيل لا بد أن نعطي لمطلب الاستقلال الوطني والقومي وغيره من المطالب، مضامينه الجديدة والصيغ الإجرائية والحركية لإنجاز مهماته . وقناعتنا تذهب اليوم إلى أن الإحباطات المتوالية لنهوضنا القومي والنفي لوحدتنا القومية وإعاقة تقدم مجتمعاتنا على طريق الاندماج القومي والحداثة، لا يأتي من الحملات الامبريالية المعادية ومن حصار أعداء القومية العربية والعروبة، بمقدار ما يأتي من ركود مجتمعاتنا والاستكانة التي آلت إليها حركة شعوبنا، ومن هذه التركيبة السلطوية والسلطانية وشبه المملوكية النازلة علينا من فوق ، من فوق المجتمع وفوق الشعب، التي أخذت بها أنظمة حكمنا القطرية العربية، والمصالح والعلاقات الخاصة الداخلية والخارجية التي أقامتها لتثبيت ديمومتها وسلطاتها، أي من هذا المسخ القومي الذي نطلق عليه اليوم اسم " الدولة " أو الكيانات القطرية والأنظمة القطرية والذي أخذت تشكيلته ا لبيروقراطية وارتباطاته الخارجية تتعمم في أقطارنا العربية، كتشكلات عكسية أو مضادة لدولة الشعب الديمقراطية التي تقوم تعبيراً عن مجتمع قومي ديمقراطي تلاقت فئاته والرأي العام فيه على أن هناك مصلحة عامة تؤلف بينها، والتي تقدم كيانها السياسي ودولتها كدولة للأمة تعمل لمصلحة الأمة ولتحقيق أهدافها . فالدولة القطرية هذه هي النقيض والمعطل لقيام الدولة القومية ولوحدة الأمة، والمجتمع أو الشعب تحت هذه الأنظمة مجتمع فقد حركيته، أي حريته واستقلاليته، إلا حرية الولاء للسلطان ومبايعته. وهكذا، فالاستعمار لم يعد سلطة آتية من الخارج لتفرض علينا، ولا استبداداً يتحكم بنا من قوى خارجية تعمل لتبقينا على التخلف والتجزئة وتقطع طريق تحررنا

وتقدمنا ، بل أن الهيمنة الخارجية أو الهيمنة من خارج المجتمع، من فوق، أصبحت تتوضع داخلنا، والحجز لحرياتنا والنهب لجهدنا الوطني وعملنا والتسلط كله أصبح في داخلنا، وعلى هذا فإن مطلب الاستقلال الوطني والقومي يظل مطلبنا، ولكنه يأخذ منحى ومضموناً مختلفاً عما كان . إنه عملية تحرير لا بد أن تصعد من الداخل أولاً، وهو عملية إعادة تأسيس وبالديمقراطية للاندماج القومي وللسياسة والفعل السياسي داخل مجتمعاتنا وبناء حداثتها وتقدمها من خلال استقلاليتها كمجتمعات وقوى اجتماعية وكمنظمات وأحزاب سياسية معبرة عنها، عن المبدأ المطلق والحق المطلق للسلطة التي تحكمها وتتحكم بها. إنها عملية تحرير المجتمع واستعادة حريته واستقلاليته عن أدوات الضبط والإخضاع للسلطة وأجهزة السلطة وليعود المجتمع ويعطي بالديمقراطية صورته القومية وإرادة شعبه، وليعيد بالديمقراطية صياغة مؤسسات دولته ونظام حكمه. إنها عملية ديمقراطية مزدوجة، إذ هي بمقدار ما تخلع الهيمنة الشمولية عن المجتمع وتقيم استقلالية المجتمع ومؤسساته الشعبية، لتؤدي دورها الوطني في المشاركة وحرية الرأي ، فهي تحاصر طبقة المصالح التابعة وتدفع على طريق سحب النظم والفئات الحاكمة من علاقات التابعية والارتباط بالخارج، وليكون هناك استقلال وطني واستقلال قومي حتى تنهض وتتحرك الإرادة الحرة للشعوب ، وتصعد القوى الفعلية التي تعبر عنها.

إن هذا هو المرتكز الأول لتجدد نهوضنا القومي . إنه خط دفاع - كما هو خط هجوم- عن الرابطة القومية العربية وعن التطلع المستقبلي لوحدة الأمة وتحقيق أهدافها، وهو يقوم على تحديث المجتمع المدني في كل قطر وإقامته على روابط قومية متقدمة بين فئاته الاجتماعية على قاعدة العمل والإنتاج والمصلحة العامة المشتركة، ليعيد المجتمع بدوره تأسيس النظام والحكم على قواعد الديمقراطية والتعددية وعلى المشاركة السياسية لكل المواطنين . هكذا يمكن أن يتراجع ذلك الوجه القبيح للدولة القطرية، لتأخذ صورتها القومية والحديثة كدولة للأمة، كل الأمة، ومتطلعة إلى الاستقلال القومي لكل أجزاء الأمة ولكي لا يقوم من تناقض بينها ولتقوى على أن تشكل وحدة سياسية وكتلة واحدة ، وهكذا يكون الانتقال من دولة أو دول للأمة، إلى دولة الأمة أو الأمة- الدولة.

إن مثل تلك الدولة الوطنية الديمقراطية الحرة التي تقوم حصناً للأمة ولوحدة الأمة، والتي تصبح مرجعية لقوى الأمة ومنارة تستدل بها إلى وحدتها المستقبلية، ليست الصيغة أو الطريق الوحيد نحو وحدة الأمة، ولا نقف على انتظارها أمام ما يمكن أن ينهض من تجارب ومؤسسات قومية تجمع في هذا الموقع العربي أو ذاك، أو بين قطرين عربيين أو أكثر ليمتد ويعمم . إنه طريق أعطى من قبل تحركاً قومياً لأمتنا، ولأمم أخرى قبلنا، فمثل هذا النهوض لدولة عربية تصنع استقلالها الوطني وتقدم نفسها من خلال امتلاكها لحريتها وقرارها القومي الحر، كصرح للدعوة القومية، وكمرتكز لتجمع قوى الأمة العاملة للوحدة ، كان له مثل أو نموذج قام في مشرق الأمة العربية ، وتحديداً في العراق، وبعد أن استقل العراق عام ١٩٣٢ وصار القوميون الوحدويون العرب يتطلعون إليه بآمالهم في تحرير الأمة وتوحيدها، بحيث كانت الكثير من ا لطلائع القومية في تلك الحقبة من تاريخ نضالنا القومي التحرري يتطلعون إلى بغداد ويسمونها بروسيا العرب، تطلعاً إلى أن تأخذ دورها على مثال الدور القومي الذي قامت به بروسيا بقيادة بسمارك في تحقيق الوحدة الألمانية، كان ذلك تصوراً ومثالاً في حقبة مضت وانقضت من تاريخ نضالنا القومي أو بدايات لما كانت عليه رومانسية طلائعنا القومية. إلا أن مثل هذا الكيان العربي المستقل والذي ينهض كدولة للأمة قد تقدم وأعطى القدوة الجديدة في دولة مصر عبد الناصر وثورة مصر الناصرية . إنني لآخذ، في هذا المثال والمنطلق، بالنظرية التي يتشبث بها مفكرون وحدويون حين يقولون بالدولة المركزية آو المركز أو الدولة الصاعدة، في إقامة وحدة الأمة، ولا بذلك النمط البسماركي في إقامة الوحدة، ذلك نمط مضى زمانه وأفكاره ورجاله. ولكني آخذ بالنموذج الناصري حين قدم مصر بعد الحصول على استقلالها الوطني ، كل استقلالها، كدولة للأمة العربية كلها ملتزمة بمساندة كل قضاياها ومصالحها وبتحررها ونهوضها، وبذلك أعطى القدوة وقدم المساندة، وأعطى المنهج والطريق لبقية أقطار الأمة . فدولة مصر الناصرية ، وفي منظورنا لا الماضي وإنما المستقبلي أيضاً ، وأياً ما كانت القصورات أو الثغرات الديمقراطية التي شابت بنيانها وعثرت تقدمها والتي لا بد من تداركها في

أي تجديد للمسيرة، فهي تضع أمامنا النهج الفارق والنمط المعاكس تماماً لأنماط " الدولة القطرية " العربية الراهنة. ولكن هذا النمط والنهج الديمقراطي والتقدمي للتغيير والتحول للسلطة القطرية السلطانية التابعة، إلى دولة قومية ديمقراطية للأمة، لا تقف به عند مصر وحدها، مع كل ما تمثله مصر في حجمها وموقعها وتاريخها، بل نطالب بالتقدم على طريقه كل المجتمعات وكل حركات الشعوب والنضال القومي العربي في مختلف أقطارها، مؤكدين في هذا على مقولة جاءت في ميثاق عبد الناصر تؤكد أن أي حكومة وطنية في الوطن العربي، تمثل إرادة شعبها ونضاله في إطار من الاستقلال الوطني، هي خطوة نحو الوحدة من حيث انها ترفع كل سبب للتناقض بينها وبين الآمال النهائية في الوحدة . ونعود ونعطي لهذه المقولة كل المضامين التي تطلعنا من خلالها لقيام النمط الديمقراطي الحديث للدولة القومية كدولة للأمة. هذا مانريد أن تنهض له كل مجتمعاتنا العربية، ولكننا في الوقت ذاته، ومن خلال التجربة التاريخية وما كان من انتكاس لحركة نهوضنا القومي بعد انتكاس مصر وغياب دورها القومي والقدوة التي كانت تقدمها، نظل نتطلع بإصرار إلى أن تستعيد مصر العربية، مصر المجتمع، مصر الشعب أولاً ، ثم مصر الدولة المعبرة عن المجتمع وإرادة الشعب، ذلك الموقع والدور الذي كان لمصر الثورة، مصر عبد الناصر، مصر التي صارت "جمهورية عربية متحدة" ولكل أمة العرب، مصر تلك التي ارتد بها عن نهجها الثوري وألغى دورها القومي الوحدوي والاستقلالي، الرئيس السادات الذي تمجد إسرائيل ذكراه ، بدءاً من يوم السادس عشر من أيار (مايو) عام ١٩٧١، حين وقف ليعلن إسقاط تسمية مصر (بالجمهورية العربية المتحدة) ، لتعود مصر مصرية وكفى، وكان هذا مدخله إلى الارتداد عن طريق ثورة مصر القومية إلى الثورة المضادة، وإنهاء قيام مصر بدورها كدولة للأمة، كجمهورية متحدة صنعت وحدة عربية، وظلت على طريق الوحدة، ودولة لوحدة الأمة وصانعة وحدة حركة شعوب الأمة، لينكفىء بها خطوة إثر خطوة إلى القطرية والتابعية لأميركا بل وأعاد الإقطاع السياسي إلى سدة الحكم وليعود المجتمع المصري (كما كان يقول تكراراً) إلى القرية وأخلاق القرية، أي للروابط قبل القومية، ثم ليضع مصر في مسار كمب دافيد، ومن ثم لتوضع " الدول القطرية " العربية كلها في هذا المسار التابع والخاضع .

في الخمسينات من هذا القرن، كان النهوض الكبير لحركة الشعوب تحت رايات القومية العربية وثورة الوحدة، وفي عام ١٩٦١ كانت السقطة الأولى لأمجاد الثورة العربية كثورة قومية وحدوية، إلا أن مصر دولة للأمة وترفع راية " الجمهورية العربية المتحدة " أملاً بتجديد المسار الوحدوي واستعادة الوحدة، إلا أتها في كمب دافيد، وليس منذ هزيمة حزيران، كانت السقطة الأخطر، حين دمرت الدور القومي الذي قام لمصر، لكن الاجتياح الكبير لحركة القومية العربية كان في حرب الخليج الثانية، ليقف من يقول : "هذا هو التدني الأخير للقومية العربية".

حرب الخليج واختراق الجسد العربي

في تعقيبه المباشر على النكبة التي حلت بالأمة بعد الهزيمة في حرب حزيران عام ١٩٦٧، قال جمال عبد الناصر: " هذه لم تكن حرب العدو الإسرائيلي وحده بل وحرب كل القوى المعادية التي جاءت لتصفي حسابها مع القومية العربية ". والأستاذ انطون المقدسي في كتابه " حرب الخليج- اختراق الجسد العربي " قال : " إن حرب الخليج هي واحدة من نكباتنا الثلاث الكبرى في التاريخ المعاصر. جذورها كلها في النكبة الأم التي هي الدولة القطرية وفي سلسلة النكبات التي يذكرها : من نكبة ١٩٤٨ ونكبة ١٩٦٧ وبعدها كانت نكبة ١٩٩١ " وهي أدهاها ، لأنها جعلت من التجزئة في نظرهم ، أي كما أرادها أعداء الأمة، واقعنا الأبدي . وكتاب المقدسي ذاك ، الصغير بحجمه والعميق بمحتواه ، كما هي كتابات أستاذنا المقدسي دائماً ، جاء صرخة من أعماق الوعي العربي والوجدان . إنه لم يكن صوتاً يصرخ في الصحراء " كما قال المقدسي نفسه عن الأرسوزي وفكره القومي في مقالة رثائه له عام ١٩٦٨، بل كان الصوت الذي يعلو على إشكاليات الحاضر(١) والنكبات التي ضربت الأمة . صوت العقل ومعه الوعي القومي والوجدان، صوت الفكر والمعرفة، أي الثقافة عندما تصبح الثقافة رسالة وتبشيراً بنهضة ثانية

للأمة. إنها نهضة أصبحت صعبة ولا شك، بعد كل تلك العاديات والنكبات وكل ما ينتج عنها من تأخر عن العصر وروح العصر، إلا أنها ليست بالممتنعة، بل هي الضرورة التي لا بد منها، شريطة أن نصمم (أن نصمم كمثقفين وطلائع ثقافية قومية) عليها وأن " نقول " وندفع الثمن (وهو ثمن حرية الفكر والضمير)، والمثقف الحق ، ذلك الأمير الجديد للنهضة (حسب تعبير غرامشي المسترشد بعقلانية السياسة لدى مكيافيل) ، هو الذي يقول وهو الذي يقرر النهوض، من حيث أن النهضة هي رؤية وفعل، رؤية مستقبل نحيله حاضراً إذ نقوله، وفعل يحقق هذه الرؤية. وهكذا تصبح الثقافة رسالة (وبتعبيرنا نقول سياسة وإرادة تغيير)، وإذ لكل منعطف تاريخي كبير رسالة هي التي تعطيه معناه أو منحاه، فمنعطفنا الكبير اليوم أن نختار مخرجاً من المأزق، وهو في أن نقوى على تجاوز الهزائم والتخلف وأمراض التخلف وماسبب/ أو تسبب به الهزائم، من أجل بناء مجتمع وحدوي معافى يعيدنا إلى المستوى اللائق بأمة عظيمة، ولكن هذا كله، كما يقول المقدسي في ختام كتابه ونهايته، تطواف "يتم في صمت القلب "، واذا لم يأت ذلك منه تعبيراً وجودياً على غرار تعبيرات كيركغارد، فهي لا تقبل الفرادة وصمت القلب بعد كل تلك الصحوة للعقل . والمقدسي يقول لنا قبل ذلك: إن تلك " الرؤية الفعل " التي تصل بالمثقف إلى قرار النهضة الذي لا تراجع عنه، والذي تلغى عندما تتخذه الطريق القديمة مرة ولكل مرة، إنما هي رؤية تحققها أنت في داخلك، وتستمر على أرضها (ثابتاً) أياً كانت الظروف، فالمقدسي هنا أيضاً يأخذ بنا إلى نموذج آخر لرجل الثقافة والفكر. يأخذ بنا إلى نموذج زكي الأرسوزي، أو إلى نموذج نيتشوي، بل لعله أفلاطوني (ونعني به الفيلسوف اليوناني)، أي لنموذج من تلك النماذج الإنسانية الرفيعة للفيلسوف أو النبي أو الشاعر الفذ الذي يعطي رمزاً أخلاقياً ويقدم معاني ومفاهيم إنسانية كلية، هذا الذي قد تكون الأمة على انتظاره منذ قرون " ذلك المخلص " الذي لا نستطيع اليوم أن نقعد على انتظاره، بل نمضي مع المقدسي إلى حيث مضى في المقالة الأولى من كتابه، ونقف معه. ولقد وقف معنا حيث وقفنا أيام أزمة الخليج ، ونمضي إلى مخاطبة ذلك المثقف العضوي، الملتصق بالجماعة والمعبر عنها، أي إلى ذلك النموذج الثالث من المثقفين المميز بين تلك النماذج الثلاثة المختلفة من حيث مواقعها عندما نشبت الأزمة ووقعت الحرب وحلت النكبة. فهناك فئة من المثقفين، هم الكثرة، التي مشت في ركاب الحاكم وعبرت عن إخلاصها لمن بيده الحل والربط ، وهناك فئة المتربصين التي بقيت على الانتظار، " وأقل منها فئة عصمها ربك "، إنها تلك الفئة الثالثة التي أردناها، والتي كان لها من الجرأة ما مكنها أن تقف بجانب الشعب وأن تقول حقيقة، وتعبر عن حقيقة موقفها وموقفه، هكذا وقف المقدسي وهكذا وقفنا عندما وقعت الواقعة وعميت الأبصار، في مواجهة الظروف الخطيرة التي مرت بها الأمة والعالم، إبان حرب الخليج الثانية . تلك الفئة من المثقفين، والتي تميزت بموقفها المعبر عن ضمير الشعب ومعاناة الأمة، هي التي يمكن أن تشكل النواة الصلبة لعمل وحدوي منتج، لتنتقل بوعي قضية الأمة وأزمتها، من شكله المضمر في الوجدان الشعبي إلى الشعور الجمعي حيث يأخذ شكلاً محدد المعالم ... ولتعطى من جديد مفهومها للأمة ووحدة الأمة وما تحمله من معان ومعايير ومقومات ومن أهداف مستقبلية، ولتدفع لتحرك قومي جديد يستوعب دروس النكسات التي مضت ويرتفع إلى مستوى العصر وتحدياته، ويضع الأمة على طريق تجدد حضاري ونهضة، أو لتؤكد أن لا طريق لتقدمنا إلا في هذا النهج القومي المتجدد.

تلك القلة من المثقفين التي وقفت هنا وهناك وهنالك، إلى جانب شعوب الأمة، وحيث أمكن أن تتحرك شعوب الأمة، وقالت حقيقة موقف الشعوب، كانت هى التعبير عن حضور الأمة وعن حركة القومية العربية المستقرة في الوعي والضمير.

ولكن السيد الأميركي حين جر الأنظمة العربية وراءه في الحملة العالمية ضد العراق، وحين أعطت جامعة الدول العربية تلك الصورة المحزنة عن مبلغ تفاهة روابطها والتزاماتها القومية، وعن عجزها وتبعيتها للقرار الأميركي (ولا نقول الدولي) راح يلطم وجوهنا بهذا الواقع، واقع الأنظمة وجامعة الحكومات، ويقول : "هذه هى حقيقتكم فلا من مصلحة لأمة توحد ولا من رابطة قومية تجمع ".

ولكن ما قال السيد الأميركي والسيد الغربي عموماً، هو أن هذه الأنظمة والحكومات بل وتلك " الجامعة " لم تعد تعبر في نظر الشعوب، ومنذ زمن طويل، عن حقيقة الأمة وعن مصالحها الواحدة وتطلعاتها الوحدوية في شيء ، وهي لم تعبر عن أي التزام قومي أو رابطة قومية حقيقية.

ولكن للأمة رابطة وأهدافاً، حقيقتها التي لا تغيب، هان أرادوا تغييبها أو غطت عليها ضجة الإعلام المسخر وحركة الأحداث، كما أرادوا أن يفعلوا بتلك الحقيقة القائمة في ذاكرة شعوبها وتواصل أجيالها. وفي مواجهة ضجة الأحداث لم تستحضر حركة الشعوب، حيث استطاعت أن تحرك وتعبر، الا فعل الخمسينات وما كان عليه حضور الأمة في حركة الشعوب.

في الخمسينات كان هناك، في حركة الواقع، مشروع نهوض قومي على طريق التحقيق ونظل نتشبث بما أعطانا من دفعة تقدم ومن مرتكزات استراتيجية لذلك التقدم . إلا أن ذلك المشروع قد اخترق وتكسر، والعدو الخارجي عاد إلينا بمشاريعه التجزيئية وعاد يهيمن . بل والعدو استوطن داخلنا، وصار له رصيد في تركيبة أنظمتنا وبنانا، وأميركا أصبحت هي الآمر الناهي للكثير من حكامنا، ليصبح مشروعنا القومي منفياً مرتين : من تسلطية الأنظمة القطرية على مجتمعاتها وقهرها لها، ومن قوى الهيمنة الدولية والإقليمية التي تحيط بنا والتي تتربص لنا بمشاريعها التي تستهدف إخراج أمتنا من التاريخ مرة واحدة وإلى الأبد.

وأعود هنا مرة أخرى إلى الاستشهاد بما جاء في كتاب المقدسي الآنف الذكر: " لقد شكلت حرب الخليج اختراقاً (دامياً) للجسد العربي على درجة من القوة والسرعة والعمق بحيث أننا لم ندرك (في حينه) مفعولها البعيد ولا القريب " وأيضاً : " لقد قيل عن حرب الخليج إنها حرب حضارية وإن المهزوم بها هو التاريخ العربي . قلت هل هزم حقاً ماض عمره خمسة عشر قرناً ، وكان طيلة قرون يضيء بعلمه عالماً غارقاً في الجهل؟ أرفض ان أصدقه ولكن ماذا عن المستقبل؟ فالماضي أياً ما بلغت عظمته، وأياً ما أعطي من ثقة بإمكانات هذه الأمة، فإنه لا يعطي لوحده رصيداً أو آمالاً للمستقبل ".

فليكون هناك طريق قومي إلى المستقبل ، لا بد أن نخرج من رحلة التفتيت التي انخرطت فيها أو دُفعت إليها قوى الأمة. ويمسك كتاب المقدسي بأسباب العلة في داخلنا : " في رحلة التفتيت هذه أزيحت الـ (نحن) القومية بعد فترات متعاقبة من الصعود والهبوط لحساب الـ (نحن) القطرية وصار من الممكن لواحد من أركان مجلس التعاون الخليجي بأن يعلن : أثبتت حرب الخليج أن الأمة العربية أسطورة... وأنا من شعب يؤمن بهذه الأسطورة . والأسطورة هنا . كما في لسان أفلاطون والإغريق القدامى تقول: وجودي، وجودك، وجودنا كلنا ولا وجود لنا سواه ، شعباً واحداً، أمة واحدة صارت في الخمسينات من هذا القرن قوة يحسب لها حساب بين القوى العالمية، يومها وقفت في وجه عملية التفتيت وجعلتها تنحسر. فما، أو من أفقد الأمة قوتها الإجرائية في السنوات العشر الأخيرة بوجه خاص (وأضيف عشر سنوات أخرى قبلها)؟ أنا، أنت، كلنا، كل بحسب موقعه من القرار السياسي، إذ استبدلنا عن قصد أو غير قصد موقفنا القومي بمواقع قطرية والذي حدث في السنوات الأخيرة وقبلها، هو أن السياسة الدولية والاقليمية عزلت الشعب العربي ، حيدته وزورت إرادة الأمة، فأجبرتها بذلك على العودة إلى حيث كانت قبل النهضة، أقصد إلى وجدان الشعب . وبقيت مع ذلك ذكراها، ذكرى الخمسينات في خيالنا وعقولنا نحن أبناء تلك المرحلة، وهذه الذكرى هي التي عادت (تلح) بكل قوتها مع بداية أزمة الخليج أو أثناء حربها ".

وهذه الذكرى تعود وتلح من جديد، أمام كل ما تتعثر به حركة القومية العربية، وتتعثر به أحوال الأمة كلها، وتلح لا كمجرد ذكرى وحنين لماض وإنما كحافز تحديد وحافز نهوض وعمل . فماذا أبقت لنا تلك الحقبة من ركائز للمستقبل أو مرتكزات نعود إليها، فضلاً عن دلالتها على قدرة شعوب هذه الأمة على النهوض من جديد؟ فحقبة الخمسينات كانت عظيمة، وكانت حقبة ثورة، إلا أنها بمقدار ما كانت

عظيمة ورائعة بحركة شعوبها وطلائعها وما حققت، فإنها في بنيانها وتركيب قواها وتشييد نظمها وتنظيم مجتمعاته ظلت على هشاشة أو نقاط ضعف في تماسك البنيان .

في حقبة الخمسينات، نحن أبناء تلك المرحلة والمندفعين في تيارها، مرحلة " البعث القومي " ومرحلة عبد الناصر وثورة الجزائر، تقدمنا هنا وهناك وهنالك ، نحمل الفكرة وقوة الفكرة، نحن أمة واحدة ونريد أن نعود أمة واحدة إلى مسرح التاريخ . تقدمنا وكأننا في تصميمنا سنحقق ما نريد، وكأن أهدافنا، أهداف الأمة في استقلالها ووحدتها وتقدمها ، أصبحت قريبة المنال، نكاد نطالها بأيدينا، وكأنها أهدافنا نحن جيل الخمسينات ليست لجيل آخر يأتي، نحن جيل عبد الناصر وأحمد بن بيلا ورموز أخرى فكرية وسياسية غيرهما، وما أقل تلك الرموز والرجال التي ظلت رموزاً للأمة والتي ثبتت على محك التجارب والمحن .

تلك كانت حقبة تقدم . تلك كانت نزعتنا وتطلعاتنا نحن أبناءها، إلا أنها نزعة وتطلعات كانت على قدر مما يسمونه بالإرادوية (volontarisme) . فلم نقم أرضاً صلبة بما فيه الكفاية في مجتمعاتنا وفي تجمع حركاتنا وقوانا، وهكذا تقدمنا في البداية " من نصر إلى نصر... " ونحن لا نرى ما خلفنا وراءنا من معوقات ومن مواقع للردة والرجعة وما أبقينا عليه في مجتمعاتنا وبنانا السياسية من ثغرات، بل ومن مقاتل لحركتنا القومية. لقد دفعنا الشوط إلى آخره في النصف الثاني من الخمسينات حين وقفت شعوب الأمة وقفة واحدة في مواجهة العدوان الثلاثي على مصر بعد تأميم قناة السويس، وانتصرت إرادة الأمة وقلنا : هذه قوميتنا العربية وقد صارت حركة شعوب وثورة، وها هي الوحدة العربية تقدمت هدفاً عاجلاً وأصبحت استراتيجيتنا (كما قال عبد الناصر) في التصدي للمشاريع والقوى المعادية وفي التعامل كأمة مع القوى العالمية، وبهذا التصميم قامت وحدة القطرين مع مطلع عام ١٩٥٨، وقامت أول دولة قومية للأمة العربية، وأرادتها كل شعوب الأمة دولة لها وتطلعت إليها، والتفت شعوب الأمة كلها حولها وقامت دولة الوحدة وتعزز بنيانها، وما اكتشفنا جوانب الضعف في ما بنينا إلا عندما ضربتنا " نكسة " الانفصال في أيلول عام ١٩٦١. ووقفت قيادة الأمة وقامت طلائعنا الثقافية بمراجعة نقدية لما كان وحسبنا أننا تعلمنا درساً من المحنة، وقمنا بتعزيز البنيان القومي في مجتمعاتنا وفي علاقاتنا القومية وتركيب قوانا، وتقدم عبد الناصر أمامنا، وقال إن قوميتنا العربية، ثورة أمتنا الوحدوية، أصبحت قادرة على حمل مهمات الثورة الاجتماعية، لنقتلع جذور الرجعية والتخلف ولنقيم مجتمع الكفاية والعدل، وصارت كل الحركات و " النظم " الثورية العربية تعبئ برامجها ومزوداتها، بالاشتراكية الثورية وبالاشتراكية العلمية. وغفلنا أو تغافلنا عن الإمساك بالمنهج الديمقراطي الذي لا بديل عنه لتعزيز حركة الوعي والعقلانية والتماسك القومي في مجتمعاتنا وقدرة الشعب على أن يبصر أو يرى كيف تساس الأمور وتبنى . وجاءتنا تلك الضربة الماكرة من أعداء الأمة، وحلت بقوى أمتنا وما بنت من قوة، تلك الهزيمة في حرب حزيران عام ١٩٦٧ لتكشف ضعف ما بنينا وحسبنا أننا بنينا في مواجهة تحديات العصر ومواجهة ما يدبر ضد أمتنا وضد نهوضنا القومي . وقمنا من جديد نراجع عثراتنا وأخطاءنا، وقمنا بهمة عبد الناصر التي تجددت، نعيد بناء القوة من جديد.

عندما وقع الانفصال الغادر قلنا إن حركة القومية ستثأر للأمة من هذا الانفصال وتزيل آثاره بإعادة الوحدة وتجديد المسيرة الوحدوية للأمة. وظل مطلب إزالة آثار الانفصال معلقاً، فلا من انفصال ثأرنا ولا من وحدة أعدنا.

وبعد عدوان حزيران والهزيمة التي حلت والوقفة التي وقفتها شعوب الأمة في رفض الهزيمة ومواصلة الكفاح، رفعنا من جديد شعاراً ، هدفاً، طريقاً في البناء، بدت الأمة وبما تقدمت إليه قيادة عبد الناصر، قادرة على تحقيقه، وهو شعار: " إزالة آثار العدوان "، و " ما أخذ بالقوة سنستعيده بالقوة ". فمعركة دحر العدوان، وإزالة كل ما خلف من آثار، تنتقص من وجودنا القومي وتعترض طريق ثورتنا القومية، وهي معركة لا بديل لأمتنا فيها عن النصر، لكي تقوى بعدها على استئناف مسيرة البناء

والنهوض والتقدم نحو أهداف الأمة والوحدة ولتأخذ الأمة دورها الحر في العالم . ولكن عبد الناصر انقطع عنا وقطعنا في منتصف الطريق وتحولت الأمور كل تحول من بعده . وفي مصر نفسها وعلى أرض المعركة، حيث حلت قوى الثورة المضادة محل الثورة، وحيث قام الانكفاء إلى القطرية والتابعية محل القومية العربية وتقديم مرجعية لوحدة الأمة، وحين قاد الرئيس السادات القوة التي بناها عبد الناصر، ليعبر بها القنال ويخترق خط بارليف، فهو لم يقدها إلى حرب لا بديل فيها عن النصر وإزالة كل آثار العدوان، بل وقف بين بين، ليفتح أبواب مصر لأميركا، وليذهب بعدها إلى كمب دافيد، ولتبدأ بعد ذلك مسيرة التراجع على طول الأقطار العربية وعرضها . وبعد حرب تشرين التي تحولت، بعد نصف نصر في البداية، إلى هزيمة سياسية للأمة استهجنتها الشعوب واستغربها العالم كله، جاءت حرب لبنان واحتلت إسرائيل عاصمة عربية، تحت ظلال السلام المصري- الإسرائيلي دون أن تحرك الأمة ساكناً أو تقول بالتزام قومي أو رابطة قومية، أو بأمن قومي وبما بقي على أوراق " الجامعة " من ميثاق دفاع مشترك . ومسيرة التراجع ارتدت بكل الأنظمة العربية إلى مواقعها القطرية، ونزلت الرابطة القومية وثورة الأمة من الحكم لتصعد الثروة وأموال النفط وتصبح عنواناً لما بقي من الأمة في الحكم وليصبح الحكم أداة للإثراء والثروة ، وطعنت المجتمعات في قوميتها وسحقت الثورة الاجتماعية. ومن خلال كل هذه التراجعات والتحولات، وما فجرته من تحركات عمياء ومن سيادة اللامعقول في السياسة، داهمتنا أزمة الخليج واحتلال الكويت وحرب الخليج ، فإذ لا من رابطة قومية ولا من التزام قومي لأي من تلك الأنظمة والحكومات القطرية التي أصبحت تدور في فلك غيرها، وليس في فلك أمتها والمصلحة القومية لتتطلع لمصيرها وأدوارها كأنظمة وفئات حاكمة، وليس إلى مصير الأمة ولا لأية قائمة يمكن أن تقوم أو دور للأمة. ونادى المنادي الأميركي والغربي كله وراءه ، هذه حقيقتكم وحقيقة المنطقة، وكما نصنعها ونريد صنعها، فلا من قومية عربية ولا من رابطة أمة، وقد ولى أصلاً ومضى عصر القوميات، بل وعصر الشعوب وحركة الشعوب، وعندما ارتفع صوت الشعوب هنا أو هناك، ورفعت كلمة الأمة وقالت حقيقتها، استأسدت الأنظمة الجائرة من جديد ورفعت قبضة حديدية في وجه الشعوب وحرية الشعوب، لكننا عدنا وجددنا الرهان على ما تبقى من رصيد للأمة لدى الشعوب المقهورة، ونادينا بإيقاف حركة السقوط ورفعنا أيضاً شعار: إزالة آثار حرب الخليج . وشتان بين ما كان وما صار.

ويعود ويتجدد النداء استنهاضاً للحمية القومية وما بقي من التزام بتلك الروابط، بعد أن تراكم كل هذا الذي تراكم من آثار الهزائم والنكسات أو النكبات التي حلت بالأمة. نادينا وننادي بإيقاف هذا السقوط والانهيار في العلاقات العربية- العربية، وإيقاف حركة الاستسلام... بتبديد التناقضات التي أخذت تحتل كل ساحاتنا القومية أمام ذلك التناقض الكبير مع الحلف المعادي لأمتنا وأمام الأخطار المنذرة. نداء بالتضامن بتوحيد ما لكلمة الأمة.

ولكن من أي موقع مؤثر ننادي ولمن يوجه النداء؟ فحركة القومية العربية، بل حركاتها تلك وأحزابها التي تناحرت، لم ترفع آثار جريمة " الانفصال " ولم تجدد مسيرة وحدة .

لم تستطع هذه الحركة، حركة الأمة، وبعد كل ما حشدت من قوة وتصميم في السنوات الأخيرة من حقبة عبد الناصر، أن تواصل مسيرتها نحو نزع آثار عدوان حزيران عن أرضها وعن ضميرها، ليأتي الحلف الأميركي- الإسرائيلي في النهاية ليمسك بكل المرامي والأهداف التي أرادها من حرب حزيران.

أما حرب الخليج وما خلفت، فقد بقيت آثارها كلها تحت تصرف الولايات المتحدة الأميركية التي أبدعتها...

وحركة القومية العربية، وإذ هي بالأصل وفي كل مسارها، حركة فكر وحركة طلائع وحركة شعوب، تتطلع إلى تحرير الأمة ووحدتها، وإذ تطالب بالعودة والتجدد استنهاضاً لطلائعها واستنهاضاً

لحركة الشعوب، تجد نفسها محاصرة من جديد في محابسها القطرية وأنظمتها القطرية، أو كل ما كان وما سيأتي من نكبات، وتتطلع إلى مابقي لها من مرتكزات تقوم عليها وتنهض من جديد.

لم يعد هناك من دولة للأمة، أو لقطر يقدم نفسه مرتكزاً لصمود الأمة وتجمع قواها، ولم يعد هناك من مرجعية قومية قادرة أو قيادة عربية موثوقة من الشعوب تجدد بناء قوة الأمة وتلاقي شعوبها على وحدة الهدف، أو تقيم التلاقي والتضامن ووحدة الصف في الملمات وعندما تقصر قوى الثورة القومية عن التوحد بوحدة الهدف. ولم يعد هناك من جسور استراتيجية أو روابط استراتيجية في العمل القومي كذلك الجسر الاستراتيجي الذي امتد من قبل بين مصر وسورية.

بل ولم يعد هناك من " جامعة عربية " تؤدي دوراً جامعاً بين الحكومات والنشاطات الرسمية، كما كان لجامعة دولنا العربية، عندما نشطت أو استنشطت في حقبة ما . وإن كان ذلك ما تقدمه أضعف الإيمان بالقومية العربية ووحدة المصلحة والمصير لشعوب الأمة، فالجامعة تلك لم يكن مأمولاً منها ولا لها أن " تحمل الشوط العربي إلى آخره... " ولكنها، كانت تنسق ألواناً من النشاط العربي كانت ضرورية في مرحلة من المراحل، ولا تعترض طريق المستقبل، أي لا تكبل حركة نهوض عربي تتقدم نحو صيغ أوثق لوحدة الأمة. وجاءت ضربة حرب الخليج لتودي بكل قممه وقراراته وبكل مواثيقه في التضامن والدفاع والعمل المشترك، ليقف مثل حسني مبارك، رئيس أعظم قطر عربي، هو مقر " الجامعة العربية "، ليقول في الرد على سؤال حول تنشيط المصالحة العربية والعمل المشترك : أن لا سبيل إلى ذلك " فالجرح الذي خلفته حرب الخليج عميق جداً ويحتاج لزمن طويل قبل أن يلتئم... " .

ذلك أن الإرادة الأميركية التي هندست حرب الخليج، قد أمسكت بكل ثمارها وآثارها لتدخل بالأنظمة العربية ومن تحتها الأمة ، في رحلة العذاب والتفكيك للأواصر، تلك التي يسمونها رحلة السلام والتسوية في الشرق الأوسط، والتي جرّت ومازالت تجر اقطاراً عربية وأنظمة قطرية، إلى إقامة ارتباط لها وترابط مع الكيان الصهيوني، لفك ارتباطها وترابطها مع أمتها وقضايا أمتها، تحقيقاً لذلك الأمل الذي راود الرئيس الأميركي السابق بوش ، عندما قال في الخطاب الذي ألقاه يوم ٦ مارس (آذار) عام ١٩٩١ معلناً انتصار" الحلفاء " ضد العراق : " في هذه الحرب وقفت عدد من الدول العربية مع إسرائيل في معسكر واحد ضد عدو مشترك... "، وما كان العدو المشترك إلا بلد عربي هو العراق، مدللاً على ما أريد في تلك الحرب من اختراق مقوم أساسي من مقومات وحدة هذه الأمة والتزامها القومي بقضيتها المشتركة في مواجهة إسرائيل وحليفها الإمبريالي الكبير.

وهكذا تتجمع كل آثار النكبات والنكسات، عند أم النكبات، وهي كياناتنا وأنظمتنا القطرية، التي يراد لها أن تظل واقعنا الأبدي ، أما ما تراكم في ذاكرة الشعوب من خبرات وتجارب الماضي وما كان من نهوض ومرتكزات نهوض قومي، فإن أنظمة السلاطين والأمراء، في هذا الشتات أو التشتت القومي، تتكفل بإخماد جذوته، وباعتراض سبيل حركة الشعوب، لنجد حركة القومية أو من يتطلع لتجديد حركتها وعند أية مبادرة للإمساك بمنطلق أو نقطة بداية، مطالبة بأن تنزع تلك الآثار والتراكمات السلبية، أول ما تنزع من داخلها ، أي أن تحرر الأرض التي تقف عليها، أن تحرر مجتمعاتها، لتقوى كمجتمعات وتأخذ استقلاليتها في مواجهة أنظمتنا السلطانية مستعيرين تسمية موفقة أطلقها على أنظمتنا القطرية واحد من فقهائنا، وقبله كان من سماها بأنظمة مملوكية...

إن العائدين إلى ساحات العمل القومي والمتطلعين إلى نهوض عربي جديد على طريق الوحدة اليوم، صنفان . أحدهما إصلاحي ويعتمد تدرج الخطوات والعمل على مستويين، مستوى يبني للمستقبل " البعيد " ، وآخر يتحرك على صعيد الحاضر والممكن، لإصلاح ما يمكن إصلاحه لإيقاف حركة التراجع والتردي، ولإصلاح ما بين الأنظمة والدعوة للتضامن وإنعاش حيوية " جامعة الدول العربية "... إلخ، هذا ريثما يتم إنضاج الظروف المواتية والقوى القادرة للإمساك بحركة النهوض والتطلع للمستقبل.

وثمة نهج آخر في التوجه القومي والعمل، أكثر راديكالية، وقد قطع ما بينه وبين كل مسارات التسوية والرهانات التي لم يعد لها من رصيد، ويقول إن الظروف المواتية لن تأتي ما لم نندفع إليها وما لم تتقدم إليها حركة الشعوب والثورة الديمقراطية في المجتمعات الشعبية.

وبعد كل ما تراكم من إحباطات ومن آثار نكسات وهزائم، هل نقف مع أولئك الذين يقفون على انتظار " المخلص "، أم نمضي في طريقنا ونقول مع السيد المسيح " دع الموتى يدفنون موتاهم.. فإلهنا إله أحياء لا إله أموات ". و نعلق آمالاً نهضوية جديدة، أو نتوجه إلى " من عصم ربك " ، أولئك الذين لفت الأستاذ المقدسي الانتباه إليهم في كتابه " حرب الخليج " ، أولئك الذين، وفي مواجهة النكبة وأمام النكبات، وقفوا مع الشعب وقالوا حقيقته، حقيقة موقف الأمة وظلوا التعبير عن ضمير الأمة... وندعو للتجمع، لتجمع كل الذين يتمسكون بالحرية ووحدة الأمة، ويقولون بمراجعة كل المسارات وبوصل ما انقطع في مسار نهوضنا القومي ومن حيث انقطع، مع التطلع إلى مرتكز بناء وتجمع . ومن قلب الحصار الذي تقيمه الأنظمة القطرية في وجه تحرير المجتمع ونهوض حركة الشعوب، نتطلع إلى ثورة قومية ديمقراطية جديدة وإلى من يحمل مهمات هذه الثورة، وكأننا نعود بالقومية العربية من حيث هي حركة تقدم وتغيير وثورة، ومن حيث هي حركة تشكيل للقوى السياسية وحركة تحديث للمجتمعات وللروابط القومية في المجتمع، نتطلع إلى أن نعود لنجددها من بداياتها. فالأمم الثابتة اليوم في مواقع التقدم والنهوض، ما كرست بنيان وحدتها القومية وأقامت دولتها كدولة للأمة، إلا من حيث بنت بالديمقراطية حداثة مجتمعاتها لتصنع اندماجها القومي ولتنتقل بها من بناها التقليدية وما قبل القومية، الإقطاعية والعشائرية والمذهبية، إلى بناها الاجتماعية الحديثة وإلى بناء استقلالية مجتمعاتها عن مبدأ الحكم المطلق الذي كان يسوسها، لترفع عن كاهل المجتمع سيادة أنظمة الحكم المطلق والسلطاني، لتصبح السيادة كل السيادة للشعب والدولة دولة للأمة.

كان عبد الناصر يقول : إن ثورتنا العربية القومية، تحمل مهمات ثلاث ثورات في ثورة وا حدة: الثورة السياسية الوطنية ، ثورة الاستقلال الوطني وصولاً لحرية الوطن والمواطن ، والثورة الاجتماعية وإقامة مجتمع الكفاية والعدل تقدماً على طريق الاشتراكية ، وثورة الوحدة العربية وتوحيد أجزاء الأمة بعد تحريرها سياسياً واجتماعياً . وقال في الوقت ذاته بتداخل وتكامل أهدافها ومراحلها. ونقول اليوم وبعد كل الذي تغير في العالم وفي دنيانا العربية وما حولنا، بأن ثورتنا القومية المجددة أو المتجددة، تحمل مهمات ثورتين في ثورة واحدة : مهمة قومية وديمقراطية. فهي ثورة وحدوية تنطلق من مبدأ وحدة الأمة اختراقاً لفواصل التجزئة لتعزيز روابط التكامل والتواصل بين المجتمعات والشعوب العربية. وهي ثورة ديمقراطية تنهض من داخل كل مجتمع وشعب ، لتصبح المبدأ والمنطلق لكل عمل قومي وعلى كل المستويات القطرية وما بين الأقطار وما فوقها من بنى ومؤسسات قومية، تأكيداً على هدف أصبح مقدماً على كل هدف ، وهو أن ندفع بالديمقراطية وبإعادة تأسيس السياسة والاندماج القومي في حركة المجتمعات، إعادة تأسيس استقلالية المجتمعات وحرية القوى الاجتماعية، لتقوى على رفع كابوس قطرية الأنظمة النافية لكل وحدة قومية ، ولكي لا تتكرس التجزئة من خلالها كواقع أبدي ، أو كي لا تجرنا إلى التمزق من داخلنا ارتداداً إلى شتاتنا ما قبل القومي، أو تجرنا إلى الذوبان والضياع في تلك الأطر الإقليمية أو التكتلات الأكبر والمهيمن عليها كذلك النظام الشرق أوسطي الذي يبشر به.

وحركتنا القومية التي ندعو لها ونريد لها أن تعطي لفكرة القومية العربية هدفاً لوحدة الأمة، وأن ترفع كابوس التجزئة والتأخر والتابعية والضياع ، وتعطي للفكرة صيغها الإجرائية ومرتكزاتها وقواها، هذه الحركة، ليست رجعة أو عودة بقاطرة التاريخ إلى الوراء ، بل هي التأكيد لوجودنا التاريخي كأمة، ولنبقى في مسار التاريخ، أمة واحدة .

ونعود لننطلق من البدايات من الدعوة للتجمع وطنياً وقومياً ، من الدعوة لتجديد الاندماج القومي للمجتمعات وتجديد حركة الشعوبة من الدعوة للتغيير الديمقراطي في كل ساحة، وأن يكون لنا عقدنا الاجتماعي، على صعيد الأوطان ولكل قوى الأمة، ولتصبح حركتنا القومية حركة وحدة أمة ونهوض أمة وحركة نحو المستقبل .

******

نشر هذا البحث في :
المسألة القومية على مشارف الألف الثالث
دراسات مهداة الى آنطون مقدسي بإشراف بطرس الحلاق، "دار النهار "، نيسان ١٩٩٨

هوامش

***- لهذا البحث ملحق عنوانه : " القومية العربية من النهضة الى الثورة ومن الثورة الى الديمقراطية "، وسيتم نشر هذا البحث لاحقاً ضمن مشروع نشر الأعمال الكاملة للدكتور جمال الأتا سي .**

(١) يقول انطون مقدسي في كتابه " حرب الخليج- اختراق الجسد العربي ": " لقد صارت الوحدة العربية بعد حرب الخليج إشكالية، والإشكالية في لغة الفلسفة تشير إلى مشكلة لا حل لها عند طرحها، ولكن قد تحل يوماً ، والأجنبي يعرف ذلك. ولهذا فهو يعمل على طمسه ". وهو يقول بعدها : " إن الأمة التي صارعت الدهور قروناً لا بد أن تنبعث اليوم ، وسيبعثها جيل تحرر من عقدة الأجنبي ".